صور التّشبيه و بَلَاغَـةُ النّصّ

*إعداد الطّالب: زكوان مزيق

**إشراف: أ.د. تيسير جريكوس

الملخّص

يدخلُ البحثُ إلى شِعْرِ المُتَنَبِّي مِنْ زاويةٍ بلاغيّةٍ محورُها الرّئيسُ صورةُ التّشبيهِ؛ فيبدأُ بمقدّمةٍ، ثمَّ بمهادٍ نظريّ تأصيليّ مُوجَزٍ قَدْرَ الإمكانِ، وَفِي هَذِهِ الأثناءِ تُعَرَّفُ الصّورةُ الشِّعْرِيَّةُ عَلَى نَحْوٍ عَامّ، وَدَائِرَةُ المُشَابَهَةِ، ثُمَّ صورةُ التّشبيهِ عَلَى نَحْوٍ خَاصّ، وينتقلُ البحثُ بعدَ ذلكَ ليتحرّكَ فِي المَسَاحَةِ الإبداعيَّةِ الكُبْرَى، أَيْ فِي مَجَالِ الدِّرَاسَةِ التَّطبيقيَّةِ لِشِعْرِ المُتَنَبّي، وَهُنَا يَتَخَيَّرُ البَاحِثُ القَصَائِدَ المَعْروفَةَ بِـ **(الكَافُورِيَّات)**، وَيُحَدّدُ تِيْمَةَ (اللَّوْن) دَاخِلَ تِلكَ القَصَائِدِ، وَيُجْرِي مُقَارَبَتَهُ الإِحْصَائِيَّةَ، وَيَعقبُ ذلكَ استنطاقُ نَمَاذِجَ مِنْ صُوَرِ التَّشبيهِ المُتَحَقّقَةِ. وَعَمَلِيَّةُ القراءةِ التّحليليّةِ تنطلقُ مِنَ النَّصّ نَحْوَ فَضَاءَاتِهِ، وَهِيَ بذلكَ تعالقُ بينَ الدَّاخِلِ–الخَارِجِ النَّصّيّ بِمَا تُتِيحُهُ إِمْكَانَاتُ لُغَةِ الشَّاعِرِ. وَإِثْرَ القِرَاءَةِ الحَدْسِيَّةِ التَّحْلِيلِيَّةِ تَتَجَلَّى شِعْرِيَّةُ النَّصّ بِوَصْفِهِ كُلاًّ فَنّيّاً مُتَفَاعِلاً، وَتُخْتَتَمُ الدّرَاسَةُ بِخَاتِمَةٍ تُكَثّفُ نَتَائِجَ البَحْثِ.

الكَلِمَاتُ المِفْتَاحِيَّةُ: الصُّورَةُ؛ المَجَازُ، التَّشْبِيْهُ، الشّعْرِيَّةُ، التّيْمَةُ.

***إعداد الطّالب: زكوان مزيق / طالب دراسات عليا(دكتور**

****د. تيسير جريكوس* أستاذ في قسم اللّغة العربيّة ، كليّة الآداب والعلوم الإنسانيّة ، جامعة تشرين ، اللّاذقيّة ، سوريّة.**

The Image of analogy and rhetorical of the texes

Dr. Taiyseer Jreikous*

Abstract

This piece of research handles al-Mutannabi's poetry from the rhetorical perspective that basically focuses on the parameter of the analogy. It commences with an introduction, followed by concrete telegraphic theoretical survey during which the poetical image acquires a global definion, and the circle of similarity next to analogy a specific implication. Afterwards, this research moves to mobilise within the broadened creative atmosphere; i.e. the applied study of al-Mutannabi's poetry. Here, the research selects those poems known as Kafouriyyatk and identifies the microtext of colour within those poems. He pursues the statistical approach that has been followed by varieties of the traceable images of analogy. However, the process of analytical reading springs from the text toward its horizons; thus, it intermingles the textual inside-outside in asmuch as it is allowable by the poet's language. In the light of the analytical intuitive study, the poeticality of the text emerges as one effectively artistic unity. It closes with a conclusion that encompasses the findings of the research.

Keywords: Image; Figure of Speech; Analogy; Poeticality; Microtext.

مقَدْمة:

لم يشهد مصطلحٌ أدبيّ . عَلَى نَحْوٍ يكاد يكونُ عامّاً . ما شهدته الحواراتُ الدّائرةُ حولَ مفهُوَمِ الصّورة الفنّية؛ أَيْ الصّورة ذاتِ المواصفات الجماليّة السّاحرة الهاربة، وإِذْا كنّا نتحّدثٌ عن الصّورة فِي النّصّ اللّغويّ ؛ فهِيَ تلك الصّورة ذات المواصفاتِ الشّعريّة (poetics) .

وعَلَى ما تقَدْم فإنَّ المُسْتَوَى الَّذِي تتحرّكُ فِيه الصّورةُ الموسومةُ بالنّوى الفاعلةِ الَّتِي ترتقي بها اللّغةُ المتّحقّقةُ ، هُوَ مُسْتَوَى ينمُّ عَلَى حداثةٍ نابعةٍ منَ الحوارِ مع التّراثِ بعدَ هضمِهِ، ومن مثاقفةِ الآخر الواعية، وإثْر ذلك تكونُ القطيعةُ مع الماضي محدثةً مسافةً حداثيّةً حقيقيّةً تولّدُ نصّاً أثراً لا نصّاً خبراً[1].

ومهما اختلفتْ مداخيلُ قراءةِ الصّورةِ الفنيّةِ فِي اللّغةِ بغية تحديدِ جوهرها، فإنَّ مفهُوَمَ الصّورةِ فِي هَذَا المقامِ يَنّدُ عنِ القبضِ، كيفَ لا والصّورةُ فِي جوهرِها هَذَا متحٌ مِنَ اللّامتحّققِ الإبداعيِّ ؟ وهَذَا المتحُ يُظهرهُ أداءٌ تتجلَّى سماتُهُ المجاوِزَةُ فِي المُعْطَى المضمونيِّ للنَّصِّ موضعِ القراءةِ والتّحليلِ.

فجوهرُ الصّورةِ فِي بعدِها التّخييليّ ينبني عَلَى انزياحٍ فاعلٍ ينتهكُ الاستخدامَ العاديَّ للّغةِ؛ ويتمُّ وفقَ قوانينَ خاصَّة أدبيّاً واجتماعيّاً، وتاريخيّاً، فِيمتلكُ رؤيةً للعالمِ موحّدةً ومتكاملةً، حيثُ يتّمُ التّلاحمُ بَيْنَ ما هُوَ داخل النَّصِّ وخارجه، فالصّورةُ بنيةٌ لغويّةٌ متميّزةٌ تشيرُ إِلَى بنيةٍ تاريخيّةٍ – اجتماعيّةٍ[2].

أَوّلاً: مَهَادٌ نَظَرِيٌّ (نَحْوَ تَأْصِيْلٍ حَدَاثِيٍّ):

تؤكّدُ القراءةُ النّافذةُ لنصِّ المُتَنَبِّي أَنَّ لهَذَا الشّاعرِ طريقةً خاصّةً فِي استعمالِ اللّغةِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وأَنَّ طريقةَ عرضِهِ لِلُغةِ إنشائِهِ تعجُّ بالمركّباتِ التّصويريّةِ الَّتِي يُدْهَشُ لها القارئُ مِنْ نَاحِيَةٍ ثانيةٍ. ويبدو أَنَّ أسلوبَ المُتَنَبِّي فِي شعرِهِ ؛ أَيْ فِي اللّغةِ المنتجةِ الخاصّةِ بقريحتِهِ الإبداعيّةِ ، يبدو أَنَّ ذلك الأسلوبَ تتقاسمُهُ ثلاثُ دوائرَ تصويريّةٍ كُبرى:

---

[1] – انظر: الخطيئة والتكفِير، من البنيويّة إِلَى التّشريحيّة ، عبد الله الغذّامي، دار سعاد الصّباح ، القاهرة، الكويت،ط2، 1412هـ–1991م، ص53.

[2]– انظر: مفاهِيَم الصّورة الشّعريّة فِي النّقْدْ العربيّ المعاصر ، إعداد لطفِية برهم ، إشراف أ. د . جابر عصفور ، رسالة دكتوراه جامعة القاهرة 1996م ، ص434.

دائرةُ المشابهةِ، ودائرةُ المجاورةِ، ودائرةُ البُنَى التّخييليّةِ الّتِي تقومُ عَلَى تداخلاتٍ تشعُّ بالمشابهةِ والمجاورةِ فِي آنٍ معاً. وفِي بحثِنا هَذَا سنركِّزُ عَلَى الصّورِ الّتِي تتبنى علاقاتُها عَلَى التّماثلِ والمشابهةِ .

أ- دائِرَةُ المُشَابَهَةِ:

تتدرجُ فِي هذهِ الدّائرةِ صورتا التّشبيهِ والاستعارة، وكلتاهما تُبنَيانِ عَلَى علاقةِ المشابهةِ؛ أَيْ الاشتراك فِي وجهٍ ما أو أوجهٍ متعدّدةٍ، والثّنتان تستدعيان ازدواجيّةَ الرّؤيةِ؛ أَيْ استحضار عنصرين، أو شيئين، أو كيانين ذهنيّين لإنشاءِ علاقةٍ مبنيّةٍ عَلَى التّشابهِ، وهَذَان العنصران الرّئيسان هما: المشبّهُ والمُشَبَّه بِهِ، بالنّسبة إِلَى صورة التّشبيه، والمستعارُ لَهُ، والمستعارُ مِنْهُ بالنّسبةِ إِلَى الاستعارة. (المشبّه = المستعار له، والمُشَبَّه بِهِ = المستعار مِنْهُ). والاستعارةُ تمزجُ بين شيئين وتُسَمِّي أحدَهما باسمِ الآخر[3] .

وممّا يُلحظُ أَنَّ القواعدَ المعياريّةَ الثّابتةَ الّتِي انتهتْ إليها علومُ البلاغةِ العربيّةِ القَدْيمةِ قَدْ فرضتْ رؤيتَها المنطقيّةَ الملزمةَ عَلَى كثيرٍ منَ الدّراساتِ التّقليديّة، فلم تجاوزْ تلك الدّراساتُ فِي أثناءِ تحليلاتِها للشّواهدِ المُؤَمْثَلَةِ القائمةِ عَلَى المشابهةِ مفاهِيَمَ المقارنةِ، والتّثبيتِ، والتّفصيلِ والادّعاءِ...إلخ، وكلُّ ذلك قَدْ أُطِّرَ بغائيّةٍ قوامُها الإِيْضاحُ العقليُّ، وهنا يحضرُ عبدُ القاهرِ الجرجانيّ فِي واحدٍ من شواهدِهِ: "ومِنْهُ قولُكَ: خدٌّ كالوردِ. فالشّبهُ فِيهِ منْ جهةِ الحمرةِ؛ أَيْ منْ جهةِ الصِّفَةِ نفسِها، وترى فِيهِ _منْ غيرِ تأوّلٍ_ صورتين عَلَى الحقيقةِ. وأَيْ تأويلٍ يجري فِي مشابهةِ الخدِّ للوردِ فِي الحمرةِ وأنتَ تجدُها فِي الموضعين بحقيقتِها وتراها ههنا كما تراها هناكَ؟!"[4] ولا يُحَلِّقُ الجرجانيُّ بعيداً عنْ فكرةِ الإِيْضاحُ الّتِي هِيَ وظيفةُ الصّورِ القائمةِ عَلَى المشابهةِ عنده، و المتتبّعُ لحديثِهِ عنِ التّمثيلِ والاستعارةِ يدركُ الحقيقةَ السّابقةَ عَلَى الرّغمِ من تركيزِ الجرجانيّ عَلَى معاني النّحوِ، ووجهِ تنظيمِ الكلماتِ. إِنَّ المشكلةَ فِي الاستعارةِ لَدَى الجرجانيّ تكمنُ فِي طريقةِ فهمِهِ لبناءِ الاستعارةِ النّحويّ، فالعلاقةُ بين التّركيبِ النّحويِّ والاستعارةِ تُؤْخَذُ عَلَى نَحْوٍ

---

[3]- انظر: علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، د.صلاح فضل، الهِيَئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ط2، 1985م، ص22 .

[4]- أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجانيّ، تحقيق:هـ .ريتر. وزارة المعارف، استانبول، 1954م، ومكتبة المثنى، بغداد، ط2، 1979م، ص87-89 .

عقليّ مُقَيَّدٍ بتصوّراتِ معيّنةٍ فرضتْها البيئةُ الزّمكانيّةُ للكاتب النّاقَدْ، وهنا يُلْحَظُ أَنَّ عبد القاهرِ الجرجانيّ حينَ يفكِّرُ فِي شؤونِ جماليّاتِ الاستعارةِ يكونُ مدفوعاً بنزعةٍ شكليّةٍ موضوعيّةٍ تهملُ فاعليّةَ اللّغةِ وتبتعدُ عن الجوانبِ الذّاتيّةِ فِي الكلمات. ففكرةُ تنظيمِ الكلماتِ مِنْ حيث هِيَ مظهرٌ لفاعليّةِ المشابهةِ (الاستعارة) كانتْ بعيدةً كلَّ البعدِ عنِ الموروثِ النّقَدْيِّ والبلاغيّ[5] .

أمّا الحديثُ عن بلاغةِ صورِ المُشَابَهَةِ حِيْنَ يُقَالُ: إِنَّ الاستعارةَ أكثرُ شِعْرِيَّةً منَ التّشبيهِ، فَإِنَّ ذلكَ ينطبقُ عَلَى المُسْتَوَى النّظريِّ التّجريديِّ القواعديِّ، "وليستْ هناكَ مفاضلةٌ بَيْنَ أنواعِ الصّورةِ، ولكنَّ الصّورةَ تفضلُ غيرَها بِقَدْر ما فِيها مِنَ الدّلالاتِ والإِيْحَاءَاتِ ، وتفضلُ بمدَى توفِيقِ الشّاعرِ فِي صياغةِ موقفِهِ مَهْمَا كانَ نوعُ الصّورةِ، أَوْ مَهْمَا كانتْ مصادرُها التّخيّليّةُ، فقَدْ يكونُ التّشبيهُ أكثرَ تصويراً من الاستعارةِ فِي سياقٍ مُحَدَّدٍ، والعكسُ صحيحٌ. وليسَ معنَى تفضيلِ الاستعارةِ عَلَى التّشبيهِ عجزَ التّشبيهِ عن أداءِ دورِهِ، وَإِّما لمرونةِ الاستعارةِ وَتَخَطِّيهَا للعلاقاتِ المَنطقيّةِ فِي الواقعِ وَفِي اللّغةِ" [6] . ويكادُ يجمعُ البلاغيّونَ العربُ قَدْيماً وحديثاً عَلَى عَدِّ التّشبيهِ مجازاً، يقولُ ابنُ رشيق:" وَأَمَّا كونُ التّشبيهِ داخلاً تحتَ المجازِ؛ فَلِأَنَّ المُتَشَابِهِيَنِ فِي أكثرِ الأشياءِ إِنَّمَا يَتَشَابَهَانِ بالمقارنةِ عَلَى المُسَامَحَةِ والاصطلاحِ لا عَلَى الحقيقةِ"[7].

وصورُ التّشبيهِ تتبأَيْنُ فِي محاكاةِ موضوعاتِها، وَكُلَّمَا تحرّكتْ مدلولاتُها بعيداً عَنْ مطابقةِ مرجعِهَا الخارجيِّ يُلْحَظُ توسُّعُ مَجَازِيَّتِهَا، والتّشبيهاتُ الخلّاقةُ تُوَلِّدُ الدّهشةَ والإغرابَ، وَلَا يستطيعُ المُتَلَقِّي أَنْ يلاحقَ الإِيْحَاءَاتِ الخِصْبَةَ المُشِعَّةَ إلّا مِنْ خلالِ قراءةِ تفاعلاتِ البُنَى و العناصرِ داخلَ سياقاتِها النَّصِّيَّةِ[8]. ويتّفقُ البلاغيّونَ جميعاً عَلَى عَدِّ الاستعارةِ مَجَازاً لغوّياً. وَلَمْ ينسَ نُقَّادُ الأدبِ أَنَّ ثُمَّةَ تشبيهاتٍ واستعاراتٍ تموتُ، وأَنَّ ثُمَّةَ

---

[5]– انظر: نَظَرِيَّةُ اللّغة والجمال فِي النَّقَدْ العربيّ، د. تامر سلوم، دار الحوار للنّشر والتّوزيع، اللّاذقيّة، ط1، 1983م، ص309.

[6]– الصّورة الشّعرية عند أبي القاسم الشّابيّ، د. مدحت الجيّار، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1995، ص133.

[7]– العمدة ، القيرواني(أبو عليّ الحسن ابن رشيق) ، تحقيق: محمّد محي الدّين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت،ط5 ،1414هـ– 1981م، 268/1

[8]– انظر، المجاز المرسل وعلاقاته الدّلاليّة واللّغويّة – دراسة تحليليّة تطبيقيّة فِي شعر أبي القاسم الشّابّيّ– إعداد إبراهِيَم علي زينو، إشراف د. طلال علامة، رسالة ماجستير، الجامعة اللّبنانيّة، بيروت، 1997م، ص39.

صوراً أُخْرَى تكسرُ قوالبَ اللّغةِ الاستهَلْاكيّةِ المستعملةِ المكرورةِ لتحيا بفعلِ الإبداعِ، إنَّها حالةٌ دراميّةٌ يشهدُها المجازُ فِي حركتِهِ التّنازعيّةِ الدّيناميّةِ . وفِي هَذَا البحثِ آثرْنا أن نقفَ عَلَى إحدى شعبتيّ دائرةِ المُشَابَهَةِ؛ أَيْ عَلَى صورةِ التّشبيهِ فِي تجربةِ أبي الطّيّبِ المُتَنَبِّي مُرَكِّزِين عَلَى الجانبين النّظريِّ والتّطبيقيِّ بغيةَ التّدليلِ عَلَى شعريّةِ اللّغةِ فِي بلاغتِها النّصّيَّةِ المتحقّقةِ.

ب- التّشبيهُ:

1- التّشبيهُ فِي اللّغةِ: جاءَ فِي التّنزيلِ قولُهُ تَعَالَى: " **مِنْهُ أَيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الكتابِ وأُخَرُ مُتَشَابِهاتٌ**"(آل عمران:7)؛ أَيْ يشبهُ بعضُهُ بعضاً ، والشِّبْهُ والشَّبَهُ والشَّبيهُ: المِثْلُ. وَأَشْبَهَ الشَّيءَ: مَاثَلَهُ . وشَبَّهَ عليه: خَلَّطَ عليه الأمرَ حتّى اشتبهَ بغيرِهِ. وعن أبي العبّاسِ عن ابنِ الأعرابيِّ :"شبّه الشّيءُ إِذْا أَشْكَلَ، وَشَبَّهَ إِذْا ساوى بَيْنَ شيءٍ وشيءٍ، قالَ: وسألتُهُ عن قولهِ تَعَالَى: " **وَأُتُوا بِهِ مُتَشَابِهاً** " (البقرة:25)، فقالَ: ليسَ من الاشتباهِ المُشْكِلِ، إِنَّمَا هُوَ مِنَ التَّشَابُهِ الَّذِي هُوَ بِمَعْنَى الاستواءِ. وتقولُ : شَبَّهْتَ عَلَيَّ يَا فُلَانُ إِذْا خَلَّطَ عليكَ، واشتبهَ الأمرُ إِذْا اختلطَ[9] ، ويُلْحَظُ أَنَّ المعاني اللّغويّةَ للتّشبيهِ تتضمّنُ التّمثيلَ، والمماثلةَ، والمساواةَ، والاستواءَ، وكلُّ ذلكَ يدلُّ عَلَى ما بين طرفِي التّشبيهِ الرّئيسين مِنْ شِبْهٍ يزدادُ أحياناً إِلَى درجةٍ قَدْ يتولّدُ فِي أثنائِها إشكالٌ يجعلُ الصّورةَ تختلطُ فِي ذهنِ المتلقّي. ويرتبطُ التّعريفُ الاصطلاحيُّ للتّشبيهِ بِهَذِهِ الجذورِ اللّغويّةِ ودلالاتِها المعجميّةِ عَلَى نَحْوٍ مِنَ الأنحاءِ.

2- التّشْبِيْهُ فِي الاصطِلَاحِ : ثُمَّةَ تعريفاتٌ كثيرةٌ لصورةِ التّشبيهِ فِي البلاغةِ العربيّةِ سَعَتْ إِلَى تعيينِهِ ووضعِ حدٍّ لَهُ، وهذهِ التّعريفاتُ، وإنْ اختلفتْ مداخيلُها التّعبيريّةُ، إلاّ أَنَّها تتّحدُ فِي جوهرِها. يقولُ السّكاكيُّ فِي مفتاحِ العلومِ: "لا نُخفِي عليكَ أَنَّ التّشبيهَ مُسْتَدْعٍ طرفِين، مُشَبَّهاً ومُشَبَّهاً به، واشتراكاً بينهما مِنْ وجهٍ، وافتراقاً مِنْ آخَرَ، مثل أَنْ يَشْتَرِكَا فِي الحَقِيقةِ، وَيَخْتَلِفَا فِي الصِّفَةِ أَوْ بِالعكسِ: فالأوّلُ كالإنسانين إِذْا اختلفا طُوْلاً وَقَصْراً، والثَّانِي كالطَّويلين إِذْا اختلَفَا حقيقةً إنساناً وَفَرساً. وإلّا فَأَنْتَ خَبيرٌ بِأَنَّ ارتفاعَ الاختلافِ مِنْ جميعِ الوجوهِ حَتَّى التَّعَيُّن يَأبَى التَّعَدُّدَ، فَيبطل التَّشبيه؛ لِأَنَّ تشبيهَ الشَّيءِ لَا يكونُ إلّا وَصْفاً لَهُ

[9]- انظر: لسان العرب، ابن منظور، مادّة: (ش ب ه).

بمشاركةِ المُشَبَّه بِهِ فِي أمرٍ، والشّيءُ لَا يتّصفُ بنفسِهِ، كَمَا أَنَّ المُتَتَبِّعَ لِتَعْرِيفِ السّكاكيّ السّابقِ يدركُ البُعْدَ المَنْطِقِيَّ الفلسفِي الرّياضيَّ لمسألةِ التّشبيه لَدَيْهِ، فَثُمَّةَ مُشتركٌ ينبغِي أَنْ يكونَ حاضراً فِي العُنصرينِ الرّئيسينِ، وَثَمَّةَ تَبَايُنٌ متوجّبٌ، بَيْدَ أَنَّ الأمثلةَ المضروبةَ هِيَ نماذِجُ ذاتُ مرجعيّاتٍ خارجيّةٍ حسيّةٍ موصوفةٍ ومتعيّنةٍ مسبّقاً. وتشهدُ حركيّةُ الإبداعِ اللّغويِّ كسراً لهذهِ الحدودِ الحدّيّةِ للتّعريفاتِ الاستاتيكيّةِ الثّابتة، و"فِي التّشبيهاتِ الخلّاقةِ يُلحظُ الغموضُ المولِّدُ للدّهشةِ؛ إِذْ يعوم الدّالُّ وينزلقُ المدلول" [10]. وهنا تبدو الصّورةُ حيّةً؛ أَيْ تثورُ عَلَى ملامحِ الصّورةِ الميّتةِ الَّتِي تقتربُ من المعجميّةِ إِلَى درجةِ أَنَّها لَمْ تعدْ مميّزةً، وتغدُو كأَنَّها تعبيرٌ عن مصطلحٍ خاصٍّ (كليشيهات جاهزة)، وبِهَذِهِ الحركيّةِ يتخلّقُ فعلُ الإبداعِ إنجازاً لغويّاً متحقّقاً. وَقَدْ اهتمّتِ البلاغةُ المعاصرةُ بالتّشبيهِ ، وَعُدَّ مِنْ أهمِّ عناصرِ الصّورةِ ، "لاعتمادِهِ عَلَى مَلَكَةِ تَدَاعِي الفكرِ؛ إِذْ يضمُّ إِلَى الخَاطِرِ ويصلُ بَيْنَ طَرَفَيْنِ مُتَبَاعِدَيْنِ أَوْ مُتَنَاقِضَيْنِ يلتمسُ بهمَا المُشَابَهَةَ ، وربّما أدّى هَذَا إِلَى قوّةِ تأثيرِ الصّورةِ وتعميقِ مشاعرِ التّجربة"[11] وَلَئِنْ كانتِ البلاغةُ العربيّةُ تفرضُ فِي صورةِ التّشبيهِ حضورَ العنصرين الرّئيسين (المشبّه + المُشَبَّه بِهِ) فِي البنيةِ السّطحيّةِ الظّاهرةِ ، فَإِنَّ ذلكَ مِنَ المداخلِ الشّكلانيّةِ لتمييزِ هَذَا النّوعِ من الصّورِ البيانيّةِ، وهَذَا أمرٌ مهمٌّ لتعيينِ مُسَمَّى الصّورةِ، ولا يمنعُ القولُ السّابقُ مِنَ الإشارةِ إِلَى أَنَّ التّشبيهَ مصطلحٌ ذُو مَعْنًى عامٍّ أوسع بكثيرٍ من المعنى الَّذِي تُعَيِّنُهُ لهُ البلاغةُ داخلَ الحدودِ الضّيّقة، نوعاً ما، لمفرداتها[12].

10- بلاغة الصّورة فِي شعر عبد الوهاب البيّاتي، دراسة تحليليّة جماليّة، إعداد تيسير جريكوس، إشراف: د.أحمد كمال زكي، رسالة دكتوراه ، القاهرة، جامعة عين شمس، 1996م، ص98.

11- الصّورة بين القَدْماء والمعاصرين ، د. محمد إبراهِيَم عبد العزيز شادي ، مطبعة السّعادة ،الدّوحة، 1411هـ-1991م، ص52.

12- انظر: الصّورة الأدبيّة، فرانسوا مورو، ترجمة د. علي إبراهِيَم، دار الينابيع، دمشق ، 1995م، ص 35.

13- انظر، أسرار البلاغة ، عبد القاهر الجرجانيّ، ص 83-84.

ويُقرأُ التّشبيهُ تِبْعاً لموقعِهِ داخلَ سياقِهِ النّصيِّ الَّذِي قَدْ تتقاطعُ عَلَى أرضيّتِهِ سياقاتٌ مولّدةٌ متعدّدةٌ تنتجُ الدّلالاتِ النّصيّةَ. وهنا يتمدّدُ فضاءُ المُعطى المضمونيّ الَّذِي تشعُّ بِهِ اللّغةُ المتحقّقةُ. وقَدْ التَفَتَ البلاغيّون العربُ من خلالِ قراءاتِهِم التّطبيقيّةِ إِلَى أنواعٍ متعدّدةٍ لصورِ التّشبيهِ، وذلكَ وفاقاً لمحورين رئيسين :

أ- المحورُ التّراصفِيّ / الامتدادُ الأفقيُّ للبنيةِ .

ب-المحورُ الاستبداليُّ / العلاقاتُ الإسناديّةُ غيرُ الطّبيعيّةِ .

وفِي دائرةِ المحورِ الأوّلِ تقعُ نماذِجُ متنوّعةٌ ،مِنْ مثلِ: التّشبيه المفرد ، التّشبيه المركّب ، التّشبيه المقلوب... إلخ ، وفِي الدّائرةِ الثّانيةِ نلحظُ التّشبيهَ ذا البعدِ المجازيِّ المشوّشِ الغامضِ المبنيِّ عَلَى إمكاناتٍ استبداليّةٍ، ولا ننكرُ وجودَ نوعٍ من التّشبيهِ يُسمّى التّشبيهَ التّمثيليَّ رَاكَمَتْهُ حَرَكَةُ اللُّغَةِ الأَدَبِيَّةِ مِنْ نَاحِيَةٍ ، وَأَطَّرَتْهُ الرُّؤَى النَّقْدِيَّةُ البَلَاغِيَّةُ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى . فالجرجانيُّ – عَلَى سبيلِ المثالِ – يَرَى التَّمثيلَ ضَرْباً مِنْ ضروبِ التّشبيهِ، وَيَرَى أَنَّ التّشبيهَ عامٌّ والتّمثيلَ أَخَصُّ مِنْهُ ، فَكُلُّ تمثيلٍ تشبيهٌ ، وَلَيْسَ كُلُّ تشبيهٍ تَمثيلاً .(13)

وتتفاوتُ بلاغةُ التّشبيهِ بَيْنَ نصٍّ وآخر ، ففِي مُسْتَوَى الكلامِ الإلهِيَ/ القرآن تنفتحُ الدّلالةُ عَلَى المطلقِ ، بينما تظلُّ دلالةُ لغةِ المخلوقين مقيّدةً بفضاءاتِ لغتِهِم الَّتِي يُنْتِجُهَا انفعالٌ مُعَقْلَنٌ فِي أثناءِ إبداعِهم لِنَصِّهم النّسبيِّ الخاصِّ، ولكلِّ أديبٍ بَصْمَتُهُ الفَنِّيَّةُ الَّتِي تميّزُ نتاجَهُ عَنْ نتاجِ غيرِهِ.

والَّذِي يسبرُ شِعْرَ المُتَنَبِّي فِي أسلوبِهِ التّعبيريِّ الخاصِّ يلحظُ أَنَّهُ قَدْ بُنِيَ عَلَى إيْهامٍ خَلَّاقٍ نَضَّاخٍ بِالدِّلالاتِ الهَارِبَةِ الَّتِي يَصْعبُ عَلَى المُتَلَقِّي أَنْ يُحِيْطَ بِحَرَكِيَّةِ سِحْرِهَا؛ سَوَاءٌ أَكَانَ ذَلِكَ عَلَى مُسْتَوَى الصِّيَاغَةِ، أَوْ عَلَى مُسْتَوَى المَعَانِي النَّصِّيَّةِ المُتَفَاعِلَة.

ثَانِياً: الدِّرَاسَةُ التَّطْبِيْقِيَّةُ (قِرَاءَةٌ فِي كَافُورِيَّاتِ المُتَنَبِّي) :

تشيرُ قراءةُ بعضِ النَّمَاذِجِ المتحقّقةِ لصورِ التّشبيهِ فِي كَافُورِيَّاتِ المُتَنَبِّي إِلَى تنوّعِ كيفِياتِ العَرْضِ اللّغويِّ عَلَى مُسْتَوَى البنيةِ الأفقيّةِ الظّاهرةِ مِنْ نَاحِيَةٍ، كما تدلُّ عَلَى أهميّةِ

المُحَاكَاةِ التّشبيهِيَةِ فِي الإِثْرَاءِ الدِّلَالِيِّ عَلَى مُسْتَوَى البنيةِ العموديّةِ العَميقةِ لنصِّ المُتَنَبِّي الإبداعيِّ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى .

وَيُظْهِرُ استقراءُ نَمَاذِجِ صُوَرِ التّشبيهِ فِي لُغَةِ المُتَنَبِّي أَنَّها متنّوعةٌ مِنْ حيثُ: الطُّوْلُ، وَالقِصَرُ، وَالبَسَاطَةُ والتَّرْكِيبُ، والتّقْدِيمُ، والتّأخيرُ، والوُضُوحُ، وَالغُمُوضُ، وَالطَّبِيْعِيَّةُ، وَالمُنَافَرَةُ الدِّلالِيَّةُ....إلخ. وفِي أثناءِ تناولِ صورِ التّشبيهِ النَّصِّيَّةِ يَجري التَّحليلُ مُجاوزاً الوصفَ الجزئيَّ للظّاهرةِ عَلَى الرّغمِ مِن انطلاقِهِ مِنْهُا، وتؤكّدُ طبيعةُ التّفاعلاتِ السّياقيّةِ للغةِ النّصِّ عندَ المُتَنَبِّي أَنَّ دَوَالَّهُ تتعالقُ مع دوائرِها الفكريّةِ المنتجةِ فِي حركةٍ تفاعليّةٍ تربطُ الشّكلَ بالمضمونِ عَلَى نَحْوٍ يُشْبِهُ نتاجَ التّفاعلاتِ الكيميائيّةِ؛ إِذْ يبدو التّركيبُ الحاصلُ عَنْ عَمَلِيَّةِ التّفَاعُلِ النَّصِّيِّ ذَا خصائصَ مُفَارِقَةٍ للدّوالِّ فِي مَدْلُولَاتِهَا المعجميَّةِ الحَدِّيَّةِ المُقَيَّدَةِ.

والتَّنَوُّعُ عَلَى المُسْتَوَى الظّاهريِّ التّركيبيِّ للبنيةِ التّراصفِيةِ المتّحققةِ يتوازى مع تنوّعٍ آخر عَلَى المُسْتَوَى المضمونيِّ ؛ أَيْ من حيثُ المعاني والدّلالات المولّدة ، فاللّغةُ الإبداعيّةُ "حركةٌ مِنَ الخَلْقِ مستمرّةٌ لا تنتهِيَ عندَ غأَيْةٍ، ولا تُحَدُّ بِنِهَايَةٍ، وأَنَّ الأمرَ فِي ارتباطِ الكلامِ بعضِهِ ببعضٍ، ليسَ أمرَ تقَدْيرٍ وإعرابٍ، أَوْ بيان صحّةِ الكلامِ، وسلامتِهِ مِنَ الخَطَأ فَحَسبْ؛ فتلكَ ناحيةٌ شكليّةُ أو ثانويّةُ إِذْا قِيْسَتْ بما تقَدْمُهُ اللّغةُ إِلَى قارئِها أو سامعِها من دلالاتٍ وفاعليّاتٍ إِذْا هِيَ خرجتْ مِنْ يدِ أديبٍ فنّانٍ"[14]. وتنطلقُ الرّؤى البنيويّةُ الحداثيّةُ المتنوّعةُ مِنَ النّصِّ بغيةَ الوصولِ إِلَى البنيةِ الخفِيةِ القابعةِ فِي أعماقِهِ؛ ولذلكَ يَشترطُ هؤلاءِ فِي النّصِّ أَنْ يكونَ طبقاتٍ، فأَيْ نصٍّ بلا أعماقٍ فهُوَ سطحيٌّ؛ أَيْ فقيرٌ[15]،... ثُمَّ تتحرّكُ جماليّاتُ الشعرّيةِ فِيما بعد البنيويّةِ مِنْ خلالِ سلطةِ القارئِ الَّذِي تربَّعَ عَلَى عرشِ النّصِّ، وبدأَ يقرأُ ذاتَهُ مِنْ خلالِ التّناصِّ والتّفكيكيّةِ والتّأويليّةِ، كما بدأَ يَقْرَأُ الغائبَ وما ليسَ مكتوباً، فَوَصَلَ بذلكَ كلِّهِ إِلَى أعَلَى جماليّاتِ عصرِ الكتابةِ بمشاركتِهِ

[14]– قَضَايَا النّقدِ الأَدَبِيِّ بينَ القَدْيمِ والحديثِ، د. محمد زكي العشماوي، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، 1997م، ص284.

[15]– جَمَالِيَّاتُ الشِّعْرِيَّةِ ، د . خليل الموسى، ص256 .

الفعّالةِ فِي القراءةِ وإعادةِ إنتاجِ النّصِّ الشّعريِّ، وهنا انفتحَ الدّالُّ عَلَى مدلولاتٍ لانهائيّةٍ[16].

وَعَلَى مَا تَقَدّمَ فَإِنَّ تحليلَنَا لِبَعْضِ صُوَرِ التَّشْبِيْهِ عندَ المُتَنَبِّي جاءَ نتيجةَ قراءاتٍ طويلةٍ لِلُغَتِهِ الشِّعْرِيَّةِ عَلَى امتدادِ دِيْوَانِهِ عَلَى نَحْوٍ عَامٍّ، وَفِي قَصَائِدِهِ المَعْرُوْفَةِ بالكَافُورِيَّاتِ عَلَى نَحْوٍ خَاصٍّ.

وَفِي هذهِ الفقرةِ مِنَ البحثِ سَندخلُ إِلَى الصّورةِ مِنْ مدخلِ الموضوعِ/ المضمونِ الَّذِي يأخذُ بعينِ التّقْدِيرِ طريقةَ العَرْضِ الأدائيِّ المتحقِّقِ، وَمِنْ خلالِ الوقوفِ عَلَى فضاءاتِ التّشبيهِ فِي دلالاتِهِ النّصيّةِ نقرأُ شِعْرِيَّةَ اللّغةِ، وخصوصيّةَ التّجربةِ فِي بعضِ أبعادِها الفَنِّيَّةِ المُتَحَقِّقَةِ عندَ أَبِي الطّيّبِ المُتَنَبِّي. وَقَدْ تَخَيَّرْنَا تيمةَ/ موضوعةَ **(اللّون)**، ثُمَّ قُمْنَا بإحصاءِ دوالِّ اللّونِ وتكراراتِها فِي قصائدِ المُتَنَبِّي (المصريّات/ الكافوريّات)، والجدولُ الآتِي يُظْهِرُ الإحصاءَ المذكورَ:

اللَّوْنُ	العَدَدُ الكُلِّيُّ	الدَّالُّ الرَّئِيسُ(الذِّكْرُ الصَّرِيْحُ)	الدّوالّ الأُخْرَى(الذِّكْرُ بِالمَعْنَى)
الأَسْوَدُ	55	عددُ اللّونِ الصّريحِ=(14)، ومِنْهُ (أسود، سوداء، سَوَاد،...إلخ)	عددُ الدّوالِّ الأُخْرَى غيرِ الصّريحةِ=(40)، ومِنْهُا: (الكَدرَ، العبد، العبيد، الأعبد، العبيديّ،اللّيل، الظّلام، الأَحَمّ، كالحات، الدّخان،الرّبد، الكسوف، غراب، القَتَام.
الأَبْيَضُ	38	عدد اللّون الصّريح=(17)، ومِنْهُ: (البِيْض، أبيض، بيضاء، ابيضاض، البَيَاض...إلخ)	عددُ الدّوالِّ الأُخْرَى غيرِ الصّريحةِ=(21)، ومن تلك الدّوالّ: (الضّوء، الفضّة، الشّيب، أشيب، الرّعابيب، الأغرّ، الضّحى، الصّباح، الشّمس، السّنا...إلخ).
الأَصْفَرُ	17	لَمْ يُذكرْ هَذَا اللّونُ عَلَى نَحْوٍ صريح فِي القصائد	(النّجوم، العسجد، النّار، البدر، القمران، الكواكب، النّيّر، يَلْمَعُ...إلخ)
الأَحْمَرُ	9	عددُ اللّونِ الصّريحِ =(2)، وهَذَان الدّالّان هُمَا: (حُمْر، الحَمْرَاء).	الدّوالُّ غيرُ الصّريحةِ: (الدمّ، نجيع، خضاب، كُمَيت اللّونِ، رَاعِفٌ...إلخ).

[16]– انظر: جماليّاتُ الشّعريّةِ ، د . خليل الموسى ،ص372 .

الأَخْضَرُ	7	الذِّكْرُ الصّريحُ لِلَّوْنِ=(1)	اللّونُ غيرُ الصّريحِ = 6 (مَنبت، الرَّياحين، الغَيْث، غيوث، تُسقى بساكنها، ينبتُ العزّ، أَنْبَتَ الزّمانُ قناةً، غَيثها)
الأَسْمَرُ	5	الذِّكْرُ الصَّريحُ =(5)؛ (سُمْر، أَسمر، سَمراء)	ــــــــــــــــ
المُغْبَرُّ	3	الذِّكْرُ الصّريحُ=(3)؛ (يَغْبَرُّ، غُبار، الغَبراء)	ــــــــــــــــ
اللَّوْنُ المُخْتَلَطُ	3	الذِّكْرُ الصَّريحُ لِلَّوْنِ=(0)	الذِّكْرُ غَيرُ الصَّريحِ=(3)؛ (المُبَرْقع، الضّباب، الشِّياة)

إِنَّ القراءةَ لحركيّةِ اللّونِ النّصيّةِ تثبتُ أَنَّ دالَّ اللَّونِ قَدْ شُحِنَ عِنْدَ المُتَنَبِّي بكثيرٍ مِنَ المَعَانِي النّفسيّةِ والاجتماعيّةِ، والدّينيّةِ، والسّياسيّةِ؛ مِمَّا جَعَلَ دوالَّ اللّونِ بِنْتَ تفاعلاتِها السّياقيّةِ النّصّيّةِ. ويحْضرُ اللّونان: الأسودُ والأبيضُ لِيحتَلَّا صَدارةَ الأعدادِ مِنْ حيثُ التّكرار، وَيبدو أَنَّ كافوريّاتِ المُتَنَبِّي هِيَ تنازعٌ مستمرٌّ بينَ الدِّلالاتِ السّلبيّةِ لِلّونِ والدِّلالاتِ الإيْجابيَّةِ، وقَدْ يكونُ هَذَا التّنازعُ الحَادُّ قائماً بَيْنَ اللّونِ وذاتِهِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وبَيْنَ اللّونِ ونقيضِهِ الظّاهرِ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى (البَيَاض والسَّوَاد). وَلَا تَخرجُ بقيّةُ الألوانِ: الأَصْفَرُ، والأَحْمَرُ، والأَسْمَرُ، وَكَذَلِكَ الألوانُ الإشْكَالِيَّةُ عَلَى المُسْتَوَى الخَارجيِّ (المُغْبَرّ، وَالمُخْتَلَطُ)؛ لا تخرجُ هذه الألوانُ عن دائرةِ الجَدَلِ الفَنِّيِّ بَيْنَ عَنَاصِرِ السَّلْبِ وَالإِيْجَابِ لَدَى المُتَنَبِّي الشَّاعِرِ، وَلَعَلَّ الصِّرَاعَ الجُوَّانِيَّ بَيْنَ النَّفْسِ الشَّاعريّةِ المُشْرَئِبَّةِ بِطموحِها نَحْوَ عَوالمَ مُتَخَيَّلَةٍ مِنْ نَاحِيَةٍ، والواقعِ الَّذِي عَاشَهُ المُتَنَبِّي مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى؛ لَعَلَّ هَذَا الصِّرَاعَ هُوَ الَّذِي لَوَّنَ بِنَكْهَتِهِ المُمَيَّزَةِ دِلَالَاتِ هَذِهِ النِّيْمَةِ؛ أَقصدُ مَوضُوْعَةَ (الألوان) عِنْدَ المُتَنَبِّي.

وثُمَّةَ أشياءٌ كثيرةٌ تُسْتَنْطَقُ مِنْ خلالِ قراءةِ نَتَائِجِ الإحصاءِ السَّابقِ، بَيْدَ أَنَّ كَلَامَنَا يَكونُ نَظَرِيّاً مَا لَمْ يُشْفَعْ بالنَّمَاذِجِ المُؤَمْثَلَةِ الَّتِي تُبَيِّنُ فَاعليَّةَ الانزياحِ المُتَحَقِّقِ داخلَ هذهِ الْتِيمةِ النَّصِّيَّةِ المُتَرَابِطَةِ عُضْوِيّاً مَعْ نَسِيجِ النَّصِّ؛ أَيْ القَصَائِدِ المِصْرِيَّات **(الكَافُورِيَّات)** عَلَى نَحْوٍ كَامِلٍ. يَقولُ المُتَنَبِّي مِنْ إِحْدَى قَصَائِدِهِ:

وَتُعجِبُنِـي رِجْـلَاكَ فِـي النَّعْـلِ، إنَّنِـي رَأَيْتُـكَ ذَا نَعْـلٍ إذْا كُنْـتَ حَافِيَـا
وَأَنَّـكَ لَا تَـدْرِي أَلَوْنُـكَ أَسْـوَدٌ مِـنَ الجَهَـلْ أَمْ قَـدْ صَـارَ أَبْـيَضَ صَـافِيا؟![17]

فِي هذينِ البيتينِ ترتبطُ حركةُ اللّونِ بالدّلالةِ الاجتماعيّةِ، وَبِالبُعْدِ النّفسيِّ لَدَى المُتَنَبِّي؛ فَالفعلُ (**تُعْجِبُنِي**) فِيه سُخْريَةٌ دراميّةٌ تَنْبَنِي عَلَى تَشبيهٍ مُضْحِكٍ؛ مَفَادُهُ أَنَّ حَالَ رِجْلَيِّ كَافُور فِي أثناءِ لُبْسِ النَّعْلِ/ الحِذاَءِ لَا تَختلفانِ مِنْ حَيْثُ الشَّكْل الخَارِجِيّ عَنْ منظرِ رِجليهِ إذْا كانَ حافِياً، فإذْا كانَ لُبْسُ الخُفِّ وَنَزْعُهُ؛ أَيْ وَعَدَمُ لُبْسِهِ، سِيَّانِ بِالنّسبةِ إِلَى الرَّائِي (المُتَنَبِّي)، فَلِمَاذَا كَانَ ارتداءُ كَافور لِلحِذَاءِ، هَلْ ظَنَّ بِنَفْسِهِ، وَهُوَ مَلِكٌ أَنَّهُ قَدْ تَحَوَّلَ عَنْ أصلِهِ؛ أَيْ عَنْ كَوْنِهِ عَبْداً؟!

إنَّ المُتَنَبِّي يُحَرِّكُ اللّونين: الأَبْيَض وَالأَسْوَد مِنْ منطقةِ المُوَاضَعَةِ الدِّلاليّةِ العُرْفِيةِ لِلَّوْنِ إِلَى دَائِرةِ انزاحَ فِيها اللّونُ عَنِ العُرْفِ، وَصَارَتِ المُعَادَلَةُ الدِّلاليَّةُ المُتَحَقِّقَةُ عَلَى النَّحْوِ الآتِي:

الأَسْوَدُ = الأَبْيَض = عَدَم الدِّرَايَة = جَهْل كَافُور ⟸ العَبْدُ = المَلِك = عَدَم الدِّرايَة = جَهْل كَافُور

فالشّاعرُ يُذكِّرُ النَّاسَ بِأَصْلِ الإخشيديّ، وَيُحَمِّلُ اللّونَ دلالةً اجتماعيّةً تتمُّ عَلَى أبعادٍ سياسيّةٍ تُحيلُ إِلَى التَّمَايُزِ بَيْنَ النَّاسِ تِبْعاً لِطَبْعِهِم الأَصْلِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَلِتَرَاكُمَاتِ إِذْلالِهِم المَاضَوِيَّةِ الَّتِي أَثَّرَتْ فِي تَكْوِينِ شَخْصِيَّاتِهِمْ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى.

وَلَا تَغيبُ عَنْ مُتَأَمِّلِ اللّونينِ السَّابقينِ الدِّلالاتُ النَّفْسِيَّةُ الَّتِي أَرَادَ أَنْ يُعَبِّرَ مِنْ خلالِها الشّاعرُ/ المُتَنَبِّي عَنْ منبتِهِ العَرَبيِّ الأَصيلِ الحُرِّ البَعيدِ عَنْ منبتِ العُبوديّةِ/ العَبْدِ المَذْمُومِ المُسَخَّرِ الأَسْوَدِ؛ وَكأَنَّهُ يَقولُ: إِنَّنِي رَجُلٌ حُرٌّ أَصيلٌ عَارِفٌ عَرَبِيٌّ أَبْيَضُ الصِّفَاتِ حَقِيقَةً فَأَنَا أَوْلَى مِنْهُ بِالمُلْكِ وَالسِّيَادَةِ...إلخ. وَهَذِهِ الإِيْمَاءَةُ الدِّلاليَّةُ تَنْسَرِبُ إِلَى النُّصُوصِ الكُبرى؛ أَيْ إِلَى القَصَائِدِ الطَّويلةِ الَّتِي ظَاهِرُهَا المَديحُ، وَلكنَّ بَعْضَ مَا يَتَخَلَّلُهَا بَيْنَ الفَيْنَةِ والأُخْرَى يَعدلُ بِهَا إِلَى سِيَاقَاتِ الذَّمِّ المُبَطَّنِ الَّذِي لَا يُدْرِكُهُ إِلَّا العَارِفُ.

وَتَكثرُ الصُّورُ التَّشْبِيْهِيَةُ لِلسَّوادِ بِصِيغَةِ (**العَبْد**)؛ يَقُولُ المُتَنَبِّي:

[17]- شرح ديوان المُتَنَبِّي (معجز أحمد)، أبو العلاء المعرّيّ، 33/4.

العَبْـــــدُ لَا تَفضُـــــلُ أَخْلَاقُـــــهُ عَـــنْ فَرجِـــهِ المُنِـــتِنِ أَوْ ضِرسِـــهِ
لا يُنجِـــزُ المِيْعَـــادَ فِـــي يَومِـــهِ وَلا يَعِـــي مَـــا قَـــالَ فِـــي أَمسِـــهِ
وَإِنَّمَـــا تَحْتَـــالُ فِـــي جَذْبِـــهِ كَأَنَّـــكَ المَـــلَّاحُ فِـــي قَلْسِـــهِ
فَـــلَا تُـــرَجِّ الخَيْـــرَ عِنْـــدَ امِـــرِئٍ مَـــرَّتْ يَـــدُ النَخَّـــاسِ فِـــي رَأسِـــهِ
وَإِنْ عَـــرَاكَ الشَّـــكُّ فِـــي نَفسِـــهِ بِحالِـــهِ فَـــانْظُرْ إِلَـــى جِنْسِـــهِ
فَقَلَّمَـــا يَلْـــوُمُ فِـــي ثَوبِـــهِ إِلّا الَّـــذِي يَلْـــوُمُ فِـــي غِرْسِـــهِ
مَـــنْ وَجَـــدَ المَـــذْهَبَ عَـــنْ قَـــدْرِهِ لَـــمْ يَجِـــدِ المَـــذْهَبَ عَـــنْ قَنْسِـــهِ[18]

إِنَّ لونَ السّوادِ المَعنَوِيِّ السَّلْبِيِّ شَعَّتْ بِهِ دِلَالَةُ (العَبْد)، فَالسَّوَادُ نَتَانَةُ ضِرْسٍ وَفَرْجٍ، وَإِخْلَافُ مِيْعَادٍ، وَعَدَمُ تذكّرٍ نَاجِمٍ عَنِ انعدامِ الوَعْيِ (الجَهْل)، وَلُؤمٌ فِي الغِرْسِ (الوِلَادة/ الأَصْل). وفِي البيتِ الثّالثِ تشبيهٌ فِيْهِ تركيزٌ عَلَى الوَعْدِ؛ أَيْ عَلَى وَعْدِ كافور العَبْدِ؛ إِذْ إِنَّهُ حينَ يَعِدُ بشيءٍ تَحتاجُ إِلَى الاحتيالِ فِي جَذبِهِ إِلَى ذلكَ الموعودِ، فَإِنْ أَغْفَلْتَ جَرَّهُ تَأَخَّرَ، وَهَذَا يشبهُ حالَ المَلَّاحِ الَّذِي يَحتاجُ إِلَى جَرِّ السَّفِيْنَةِ فِي النَّهْرِ مُصْعِداً لَهَا، فَإِنْ أَلقَى الحَبْلَ مِنْ يدِهِ انجَرَّتْ مَعَ المَاءِ. فالمُتَنَبِّي هُوَ القَائِدُ الَّذِي بِجَرِّهِ للسّفِينةِ نَحْوَ مصعدِ النّهرِ يحقّقُ وَعْدَ كافور كلَّ مَرَّةٍ مِنَ المَرَّاتِ، وَلَمَّا كَانَ وَعْدُ كافور إِخْلافاً مِنْ جِهَتِهِ عَلَى نَحْوٍ دَائِمٍ تِجَاهَ المُتَنَبِّي الطَّمُوحِ، وَلَمَّا كَانَ عَلَى المُتَنَبِّي أَنْ يُلاحقَ وعودَ كافورٍ وَيَتَعَذَّبَ فِي تَحقيقِهَا، لَمَّا كَانَ ذلكَ كذلكَ فِي واقعِ الشَّاعرِ المَعِيشِ، فَلَيْسَ صَعْباً عَلَى المتلقِّي النّاضجِ أَنْ يُدركَ مِنْ خلالِ هَذِهِ الصّورةِ التّشبيهِيَّةِ حَجْمَ السّوداويّةِ المُطْبِقَةِ الَّتِي تَوَسَّدَتْ قلبَ الشّاعرِ الفارسِ الَّذِي ثَارَ عَلَى قَيْدَيِّ الحِصَارِ، وَالأَمَلِ/ الوعدِ بِالوِلايَةِ، مِنْ هُنَا أَرَانَا نلمحُ فِي التّشبيهِ السَّابِقِ ثورةَ المُتَنَبِّي عَلَى كافور العَبْد؛ فَفِي قولِ المُتَنَبِّي: **كَأَنَّكَ المَلَّاحُ فِي قَلْسِهِ** – والقَلْسُ حبلُ السَّفِينةِ –[19]نجدُ **أَنَا المُتَنَبِّي/ أَنَا الشَّاعِر** الطَّاغِيَة؛ إِذْ بِيَدِهَا التَّحَكُّمُ بسيرِ السَّفِينةِ، وبفاعليّةِ إنجازِ وَعْدِ كافور عَلَى المُسْتَوَى التَّخييليِّ، وذلكَ باستخدامِ الحِيلَةِ/ المَكْرِ الإِيْجابيِّ الَّذِي يحوّلُ الإخلافَ بِالوَعْدِ إِلَى إِنْجَازٍ لَهُ، والَّذِي ينمُّ

[18]- شرح ديوان المُتَنَبِّي، (معجز أحمد)، أبو العلاء المعرّيّ، 4/88-90.
[19]- انظر: لسان العرب، مادّة: (ق،ل،س) .

فِي اللّحظةِ ذاتِهَا عَنْ غفلةِ صاحبِ الوعدِ وانغماسِهِ فِي أشيائِهِ الغَرَائزيّةِ الدُّونيَّةِ، وفِي هذهِ الحَالِ يغيبُ العقلُ ويمرُّ المَكْرُ عَلَى نَحْوٍ يَسِيرٍ.

إنَّ لَوْنَ السّوادِ اقترنَ بالعبوديّةِ فِي هَذَا المقامِ، فَمَنْ مَرَّتْ يَدُ النَّخَّاسِ فِي رأسِهِ، وَصُفِعَ بها فِي هَذَا المَوْضِعِ مِنَ الجَسَدِ لا يُرَجَّى الخيرُ مِنْهُ، والشّيءُ يُنْمَى إِلَى جنسِهِ، وكافور الإخشيديّ عَبْدٌ عَلَينَا أَنْ ننظرَ إِلَى جنسِهِ مِنَ العبيدِ فَخُلُقَهُ كَأَخْلاقِهِمْ، وَاللُّؤْمُ دَيْدَنُهُ؛ لأَنَّهُ مِنْ أَصْلِهِ، وَهُوَ مَطبوعٌ عليهِ.

ولعلَّ تراكماتِ المعاناةِ الاجتماعيّةِ الحياتيّةِ جَعَلَتْ تتاليات الأحداثِ المُتَشَابِهَةِ عَلَى مَرِّ التّاريخِ تصنعُ مورّثاتٍ نفسيّةً فِي فئةِ العبيدِ لا يخرجُ عَنْهَا كَافُور، وقَدْ يكونُ تركيزُ المُتَنَبِّي عَلَى السّوادِ المعنويِّ، السّوادِ الَّذِي مفرداتُهُ خِصَالٌ روحيّةٌ نفسيّةٌ فِي فئةِ عَبِيْدِ النَّاسِ لِلنَّاس، وقَدْ يكونُ جزءاً مِنْ مُعْتَقَدِ المُتَنَبِّي الرّوحيّ؛ إِذْ يحيلُ كُلَّ السّوءِ الموجودِ عندَ كافور (العَبْد الأَسْود الَّذِي لَمْ يستطعْ رَغْمَ أَنَّه كانَ مَلِكاً أَنْ يجدَ طريقاً يتجاوزُ أصلَهُ وينحرفُ بِهِ عَنْ لُؤْمِهِ) إِلَى طبعِهِ فِي أَصْلِ خِلْقَتِهِ، وَهُنَا يُدْخِلُنَا المُتَنَبِّي إِلَى دائرةِ الفلسفةِ المثاليّةِ، وإِلَى الخطيئةِ الأُوْلَى لِلمخلوقين، أَوْ إِلَى عَالَمِ العقلِ أَوْ عَالَمِ المُثُلِ الأَفلاطونيِّ، أَوْ إِلَى روًى فَلْسَفِيَّةٍ باطنيَّةٍ دينيّةٍ عميقةٍ تحاولُ قراءةَ جَدَلِ التّحقّقِ الَّذِي أَنْتَجَ بِفِعْلِ السّلبِ مُوجباتِ المَظَاهِرِ الكَونيَّةِ الحياتيَّةِ فِي هذهِ الحَيَاةِ الدُّنيَا. لقَدْ خرجَ لونُ السَّوَادِ عَنْ حَدِّهِ الفِيزيقيِّ/ الماديِّ/ السّطحيِّ/ الخارجيِّ؛ فَالسَّوَادُ يُمَثِّلُ دنَاءَةَ العَبْدِ الَّذِي لا يمكنُ أَنْ تكونَ أفعالُهُ خارجَ دائرةِ طبعِهِ ومورّثاتِهِ الأصليَّةِ، فَاللّونُ لَا يُوَصِّفُ البَشَرَةَ الظَّاهِرَةَ؛ إِنَّهُ يلاحقُ مُفرداتِ الرُّوْحِ عبرَ سلوكيّاتِهَا المَحْسُوسَةِ المُعَايَنَةِ.

وَيتَحَرَّكُ اللَّوْنُ داخلَ تشبيهاتِ المُتَنَبِّي وِفَاقاً لِلَوْنِ اللّحظةِ الإبداعيّةِ؛ قالَ أَبُو الطَّيِّبِ مِنْ إِحْدَى كَافُوْرِيَّاتِهِ:

وَجُـرْداً مَـدَدْنا بَـيْنَ آذَانِهَـا القَنَـا ... فَبِـتْنَ خِفَافـاً يتَّـبِعْنَ العَوَالِيَـا

تَمَاشَـى بِأَيْـدٍ كُلَّمَـا وَافَـتِ الصَّـفَا ... نَقَشْـنَ بِـهِ صَـدْرَ الْبُـزَاةِ حَوَافِيَـا

وَتَنْظُرُ مِـنْ سُـوْدٍ صَـوَادِقَ فِـي الـدُّجَى ... يَـرَيْنَ بَعِيْـدَاتِ الشُّـخُوْصِ كَمَـا هِيَـا

وَتَنْصِـبُ لِلْجَـرْسِ الخَفِـيِّ سَـوَامِعاً ... يَخَلْـنَ مُنَاجَـاةَ الضَّـمِيْرِ تَنَادِيَـا

تُجَـاذِبُ فُرْسَـانَ الصَّـبَاحِ أَعِنَّـةً ... كَـأَنَّ عَلَـى الأَعْنَـاقِ مِنْهَـا أَفَاعِيَـا

بِعَـزْمٍ يَسِـيْرُ الجِسْـمُ فِـي السَّـرْجِ رَاكِبـاً ... بِـهِ وَيَسِـيْرُ القَلْـبُ فِـي الجِسْـمِ مَاشِـيَا

قُوَاصِـــدَ كَـــافُورٍ تَـــوَارِكَ غَيْـــرِهِ وَمَـــنْ قَصَـــدَ البَحْـــرَ اسْـــتَقَلَّ السَّـــوَاقِيَا
فَجَـــاءَتْ بِنَـــا إِنْسَـــانَ عَـــيْنِ زَمَانِـــهِ وَخَلَّـــتْ بَيَاضـــاً خَلْفَهَـــا وَمَآقِيَـــا[20]

يُصَوِّرُ المُتَنَبِّي فِي الأبياتِ السّابقةِ الخيلَ الجُرْدَ، وفِي كلِّ جزئيّةٍ مِنْ مكوّناتِ اللّوحةِ/ الصّورةِ الكاملةِ يكشفُ أبو الطّيّبِ عَنْ سمةٍ مِنْ سماتِ هذهِ الخيلِ الَّتِي تحرّكتْ بِفْعلِ فَارِسِهَا (المُتَنَبِّي)؛ إِذْ إِنَّ الفعلَ (مَدَدْنَا) بمفعولِهِ (القَنَا) وبالمكانِ المتخيّلِ (بينَ آذَانِها) المنفتحِ عَلَى مَدَى حركةِ القَنَا/ العَوَالِي، إِنَّ كُلَّ ذلكَ جعلَ الخَيْلَ الموسومةَ هِيَ الصّورةُ المُؤَمَّلَةُ لِحَرَكَةِ الذّاتِ؛ أَيْ ذاتِ فارسِهَا؛ مِنْ هُنَا غَدَتْ الخيلُ جُرْداً، قويّةً إِذَا وَطِئَتِ الصَّفَا بأَيْدِيْهَا وهِيَ حوافٍ أَثَّرَتْ فِيهِ آثارَ نَقْشِ صَدْرِ البَازِ، وَالخَيْلُ هذهِ لَهَا بَصَرٌ حَادٌّ لا عَتَبَةَ لَهُ، وَسَمْعُهَا يلتقطُ الصَّوْتَ الخَفِيَّ، وَحَرَكَتُهَا نَشِطَةٌ عَلَى نَحْوٍ هَائِلٍ؛ تَبدُو فِي أثنائِها الأَعِنَّةُ كَأَنَّهَا أَفَاعٍ لِلِيْنِهَا وَدِقَّتِهَا.

لَقَدْ بَدَتْ صورةُ الخيلِ فِي الأبياتِ السّابقةِ أَقْرَبَ إِلَى الأنموذجِ/ المِثَالِ؛ إِنَّهَا ابنةُ طُمُوحِ المُتَنَبِّي؛ تِلْكَ الَّتِي حَمَّلَهَا شحناتِ نَفْسِهِ الوجدانيّة المُجنّحة المجاوزة لحالِ اللّحظةِ الواقعيّةِ المعيشةِ، فقوّةُ الخيلِ هِيَ قوّةُ الشَّاعِرِ، وكذلكَ بَصَرُهَا بَصَرُهُ، وَسَمْعُهَا سَمْعُهُ، وَحَرَكَتُهَا فِي القِتَالِ حَرَكَتُهُ، وَفَضْلاً عَنْ ذَلِكَ فَإِنَّ السِّمَاتِ المرسومةَ للخيلِ/ الفارسِ/ الشّاعرِ لا تحاكِي المرجعَ الماديَّ الخارجيَّ المألوفَ، سَواءٌ أكانَ ذلكَ فِي الطّبيعةِ أَمْ فِي المعجمِ الذّهنيِّ الجمعيِّ المُتَدَاوَلِ لَدَى النّاسِ. وَفِي قَوْلِ أَبِي الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي:

وَتَنْظُرُ مِـنْ سُـوْدٍ صَـوَادِقَ فِـي الـدُّجَى يَـــرَيْنَ بَعِيْـــدَاتِ الشُّـــخُوصِ كَمَـــا هِيَـــا

نلمحُ تشبيهاً يمكنُ أَنْ نكثّفَ مقولاتِهِ الخارجيّةَ فِي حَدِّهَا الدِّلالِيِّ الأفقيِّ عَلَى النَّحْوِ الآتِي:

– رؤيةُ الخيلِ أَوْ سُوْد عيونِ الخَيْلِ للأشياءِ البعيدةِ فِي الدُّجَى عَلَى هِيْئَةٍ تُحَاكِي وجودَ الأشياءِ فِي الخَارِجِ؛ أَيْ تُمَاثِلُ حَالَ الشَّيْءِ فِي الواقعِ الحَقِيقِيِّ.

– مَظْهَرُ الأشياءِ البعيدةِ فِي الدُّجَى يَبْدُو فِي رؤيةِ الخَيْلِ أَوْ سُوْدِ عُيُونِهَا = مَظْهَرِ الأشياءِ الحقيقيّةِ الَّتِي تَبدو فِي الرّؤيةِ الطَّبيعيَّةِ الصِّحِّيَّةِ.

[20]- شرح ديوان المُتَنَبِّي (مُعْجِز أحمد)، أبو العلاء المعرّيّ، 4/22-24.

– رؤية الخيل أو سود عيون الخيل + الدّجى + البعد المكانيّ = رؤية الإنسان للأشياء فِي حدودها الحقيقيّة وصفاتها الواقعيّة.

– رؤيةُ الخَيْلِ أَوْ رُؤْيَةُ سَوَادِ عُيُونِ الخَيْلِ + المُعَوِّقَات المَادِّيَّة + البُعْد = رُؤية العَيْنِ الحقيقيّةِ + عَدَم وجودِ مُعَوِّقَاتٍ + تَوَفُّر العَتَبَةِ الطَّبيعيَّةِ.

لقَدْ أَنْسَنَ المُتَنَبِّي رؤيةَ الخيلِ، وَجَعَلَ سَوَادَ عيونِهَا صَادِقَ الرُّؤيَةِ البَصَرِيَّةِ عَلَى مُسْتَوَى المُتَخَيَّلِ الفَنِّيِّ لَا الواقعِ الخَارجيِّ الطَّبيعيِّ؛ مِنْ هُنَا صَارَ البَصَرُ مُفَارِقاً وَمُجَاوِزاً وَمُنْتَهِكاً لِسُنَنِ المألوفِ: فَأَيُّ سَوَادِ عَيْنٍ أَوْ أَيَّةُ خَيْلٍ يُمْكِنُ أَنْ تَرَى الأشياءَ البعيدةَ عَلَى حقيقتِهَا لَا أَصْغَرَ وَلَا أَكْبَرَ وَلَا مُختلفةَ اللّونِ؟ بَلْ أَيَّةُ عَيْنِ خَيْلٍ يمكنُ أَنْ تَرَى الأشياءَ فِي الظَّلامِ الشّديدِ عَلَى هِيْئتِهَا الطَّبيعيَّةِ المُضَاءَةِ؟!

إِذَنْ لَا سُوْدُ عُيُونِ الخَيْلِ فِي الأبياتِ السّابقةِ طبيعيّةٌ، وَلَا الخَيْلُ ذاتُهَا طَبيعِيَّةٌ، وَلَا البَصَرُ المَوسُومُ يمكنُ أَنْ يكونَ طَبيعيّاً، وَالأَصْوَبُ أَنَّ ذلكَ يشيرُ إِلَى سَوَادِ عَيْنِ بَصِيرَةِ الرَّائِي/ المُتَنَبِّي/ الشَّاعِرِ، وهُوَ إِذْ يُرَكِّزُ عَلَى دِقَّةِ رؤيةِ الأشياءِ عَلَى حقيقتِهَا ينفذُ مِنَ الحِسّيِّ المَادِّيِّ إِلَى مَا وراء ذلكَ ليقولَ: إِنَّ خَيْلِيَ هِيَ ذَاتِي فَبَصَرُهَا وَبَصَرِي مُعَلَّقَانِ بِبَصِيْرَتِي، وَلَئِنْ قَطَعْتُ بِخَيْلِي المَسَافَاتِ المُتَخَيَّلَةَ وَعَانَيْتُ مَا عَانَيْتُ، فإنّني لَا أُبَارى فِي صِفَاتِي، وَلَا أَرَى كَافُورَ الإخشيديّ إِلَّا حيثُ هُوَ فِي الحَجْمِ والشَّكْلِ واللَّوْنِ وَالمُوَاصَفَاتِ الأُخْرَى. وَالكَلَامُ فِي هذهِ القصيدةِ، وهِيَ قصيدةُ مدحٍ لكافور فِي الظَّاهِرِ، يحتملُ أوجهاً دِلاليَّةً متعدّدةً قَدْ تَجْعَلُ النَّصَّ برُمَّتِهِ ينقلبُ إِلَى ذَمٍّ حقيقيٍّ بلغةِ المَدْحِ الظّاهرِ؛ وَلَا سِيَّمَا أَنَّ هذهِ الخيلَ الجُرْدَ قَدْ قَصَدَتْ شخصاً بعينِهِ، وهُوَ كافور، فَالمَقْصُودُ مَرئِيٌّ بسودِ عيونِ تلكَ الخيلِ عَلَى حقيقتِهِ الأصليّةِ لَا المصطنعةِ المُسْتَجِدَّةِ، وفِي هَذَا ما فِيْهِ مِنَ الدّلالةِ عَلَى شموخِ الشّاعرِ وفخرِهِ بأصلِهِ فِي مقابلِ وَضَاعَةِ الممدوحِ واقترانِهِ بأصلِهِ كَعَبْدٍ، وَإِنْ كانَ مَلِكاً فِي لَحْظَةِ إنشادِ القصيدةِ.

وَمَا قيلَ فِي حركيَّةِ اللَّوْنِ الأَسْوَدِ الإِيْجَابِيَّةِ الفاعلةِ (فِي سُودِ عيونِ الخَيْلِ مِنْ خِلَالِ سِيَادَةِ رُؤيَتِهَا) يمكنُ أَنْ يُقَالَ فِي جَدَلِيَّةِ البَيَاضِ والسَّوَادِ فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ:

فَجَـاءَتْ بِنَـا إِنْسَـانَ عَـيْنِ زَمَانِـهِ وَخَلَّـتْ بَيَاضـاً خَلْفَهَـا وَمَآقِيَـا

إذْ إنَّ الضّميرَ فِي قولِ المُتَنَبِّي (فَجَاءَتْ) يعودُ إِلَى الخَيْلِ الجُرْدِ المُؤَسْطَرَةُ فِي مُوَاصفَاتِهَا، وَهُوَ – بهذهِ الحالِ– يشبّهُ الأَسْوَدَ (كافور) بـ(الأَسْوَد/ إنسان العَيْنِ)، ولكنَّ الشّاعرَ حينَ أضافَ فِي قولِهِ: (...**إِنْسَانَ عَيْنِ زمانِهِ**) نراهُ عَرَّفَ بالإضافةِ؛ فَكَافُور هُوَ إنسانُ عينِ زمانِهِ المَخْصُوصِ؛ أَيْ الزّمان الَّذِي أصبحَ فِيْهِ مَلِكاً، فإضافةُ (الهاء) العَائِدَة إِلَى كافور الإخشيدي، عَلَى كلمةِ زَمَان، وإضافةُ كلمةِ زمانٍ عَلَى كلمةِ عَيْن، وإضافةُ كلمةِ عَيْن عَلَى كلمةِ إِنْسان؛ إنَّ سلسلةَ الإضافاتِ تلكَ قَيَّدَتِ الزَّمَانَ بزمنٍ محدودٍ هُوَ فِي العمقِ ليسَ محموداً عندَ المُتَنَبِّي عَلَى مساحةِ التّجربةِ؛ لأنَّه زَمَنُ حُكْمِ كَافُور الإخشيديّ/ العَبْد/ الأَسْوَد/ المَخْصِيّ/ الَّذِي لَمْ يستجبْ لطموحِ المُتَنَبِّي الشّاعرِ، بَلْ حَبَسَهُ وَقَيَّدَهُ فاضطرَّ إِلَى الهَرَبِ؛ مِنْ هُنَا قَدْ يَجِدُ القارئُ الأُفُقِيُّ غَيْرُ النَّاضِجِ أَنَّ إِنْسَانَ العَيْنِ المَقْصُودَ هُوَ أَشْرَفُ أبناءِ زَمَانِهِ، فَيَذْهَبُ إِلَى أَنَّ البَيَاضَ وَالمَآقِي لَا تُجَاوِزُ دِلالاتِهَا المعجميَّةَ القريبةَ، بَيْنَمَا نَرَى أَنَّ البياضَ والمآقِي الَّتِي خَلَّتْهَا تلكَ الخيولُ قَدْ تكونُ ذِكْرَيَاتِ الأَيَّامِ الخَوَالِي حيثُ الممدوحُ الحقيقيُّ الأبيضُ بِفِعَالِهِ (سيف الدّولةِ الحمدانيّ)، وَالمَآقِي هِيَ صورةُ مَجَازِيَّةِ دُمُوعِ عُيُونِ الأَحِبَّةِ الَّذِين عَلِقُوا فِي ذَاكِرةِ ذَلِكَ الجَوَادِ الأَصِيْلِ؛ أَعْنِي المُتَنَبِّي/ الشَّاعِرَ.

والَّذِي يَدلّ عَلَى مَا ذَهَبْنَا إليهِ فِي تحليلِنَا هَذَا إشاراتُ أَبِي العَلَاءِ المَعَرِّيِّ فِي غَيْرِ موضعٍ مِنْ شَرْحِهِ لديوانِ المُتَنَبِّي؛ فَفِي أثناءِ وقوفِهِ عَلَى بيتِ المُتَنَبِّي مِنَ القصيدةِ ذاتِهَا:

أَبَـا المِسْـكِ ذَا الوَجْـهُ الَّـذِي كُنْـتُ تَائِقـاً إِلَيْــهِ وَذَا الوَقْــتُ الَّــذِي كُنْــتُ رَاجِيَــا

يَقُولُ المَعَرِّيُّ: "وَهَذَا بِالهُزْءِ أَوْلَى مِنْ قُبْحِ كَافُور وَسَوَادِ وَجْهِهِ"[21].

وَحِيْنَ يَقِفُ أَبُو العَلَاءِ عَلَى بَيْتٍ آخَرَ مِنْ هَذِهِ القَصِيْدَةِ:

يُــدِلُّ بِمِغْنًــى وَاحِــدٍ كُــلُّ فَــاخِرٍ وَقَــدْ جَمَــعَ الــرَّحْمَنُ فِيــكَ المَعَانِيَــا

نَرَى المَعَرِّيَّ يَقُولُ: "وهَذَا مِمَّا ينقلبُ هِجَاءً فَكَأَنَّهُ يقولُ: جَمَعَ اللهُ فِيْكَ كُلَّ المَقَابِحِ. وَعَنِ ابنِ جِنِّيّ قَالَ: لَمَّا وَصَلْتُ إِلَى هَذَا البَيْتِ ضَحِكْتُ فَضَحِكَ أَيْضاً، وَعَرَفَ غَرَضِي؛

[21]- شرح ديوان المُتَنَبِّي (معجز أحمد)، أبو العلاء المعرّيّ، 26/4.

وَهُوَ أَنَّهُ قَصَدَ بِهِ الهِجَاءَ"[22]. ولعلَّ البيتَ السّابقَ يتلاقَى فِي البنيةِ العميقةِ (Deeb structure) مِنْ حيثُ المُعْطَى الدّلاليّ، مَعْ قَوْلِ المُتَنَبِّي:

أَمَيْنَـــاً وَإِخْلَاقَـــاً وَغَـــدْراً وَخِسَّـــةً وَجُبْنـاً؟ أَشَخْصاً لُحْتَ لِـيْ أَمْ مَخَازِيَا[23]

وَلِلمُتَنَبِّي فَلْسَفَةٌ تَقَعُ فِي دَائِرَةِ البَيَاضِ ذِي المَلَامِحِ الصُّوفِيَّةِ الإِسْلَامِيَّةِ المُرَمَّزَةِ؛ إِذْ يَقُولُ:

مُنًـــى كُـــنَّ لِـــيْ أَنَّ البَيَـــاضَ خِضَـــابُ فَيَخْفِـــي بِتَبْيِـــيْضِ القُـــرُونِ شَـــبَابُ
لَيَـــالِيَ عِنْـــدَ البِـــيْضِ فَـــوْدَايَ فِتْنَـــةٌ وَفَخْـــرٌ وَذَاكَ الفَخْـــرُ عِنْـــدِيَ عَـــابُ
فَكَيْـفَ أَذُمُّ اليَـوْمَ مَـا كُنْـتُ أَشْـتَهِيَ وَأَدْعُـو بِمَـا أَشْـكُوهُ حِـيْنَ أُجَـابُ؟!
جَلَا اللَّوْنُ عَنْ لَوْنٍ هَدَى كُلَّ مَسْلَكٍ كَمَـا انْجَـابَ عَـنْ ضَـوْءِ النَّهَـارِ ضَبَابُ
وَفِـي الْجِسْـمِ نَفْـسٌ لَا تَشِـيْبُ بِشَـيْبِهِ وَلَـوْ أَنَّ مَـا فِـي الْوَجْـهِ مِنْـهُ جِـرَابُ
لَهَـــا ظُفُـــرٌ إِنْ كَـــلَّ ظُفْـــرٌ أُعِـــدُّهُ وَنَـــابٌ إِذَا لَـــمْ يَبْـــقَ فِـــي الفَـــمِ نَـــابُ
يُغَيِّـــرُ مِنِّـــي الـــدَّهْرُ مَـــا شَـــاءَ غَيرَهَـــا وَأَبْلُـــغُ أَقْصَـــى العُمْـــرِ وَهِـــيَ كَعَـــابُ
وَإِنِّـــي لَـــنَجْمٌ تَهْتَـــدِيْ صُـــحْبَتِي بِـــهِ إِذَا حَـــالَ مِـــنْ دُوْنِ النُّجُـــومِ سَـــحَابُ

فَبَيَاضُ الشَّيْبِ كَانَ مُنًى عِنْدَ المُتَنَبِّي حينَ كانَ سوادُ الفَوْدَيْنِ يُغْرِي الإِنَاثَ البِيْضَ؛ لِذَا تَمَنَّى أَنْ يكونَ البَيَاضُ خِضَاباً لِلسَّوَادِ، كَمَا يُخَضَّبُ البَيَاضُ بِالسَّوَادِ؛ لأَنَّ ظُهُوْرَ الشَّيْبِ الأبيضِ وَقْتَ الشّبابِ؛ أَيْ فِي غيرِ حينِهِ، مَدْعَاةٌ لِمَعَانِي الجَلَالةِ والوقَارِ والحِلْمِ، وَلَا سِيَّمَا إِذْا كانَ صَاحِبُهُ شابّاً هُوَ المُتَنَبِّي.

وَيَسْتَنْكِرُ الشَّاعِرُ فِي البيتِ الثَّالِثِ بأسلوبِ الاستفهامِ ذَمَّهُ للشَّيْبِ حِيْنَ جَاءَهُ مُتَأَخِّراً، وَشَكْوَاه مِنْهُ.

إِنَّ اللّونَ الأبيضَ الَّذِي جَلَا عَنْ لونٍ هَدَى كُلَّ مَسْلَكٍ؛ أَيْ الَّذِي أَزَالَ السَّوَادَ والظّلمةَ؛ لأَنَّهُ حَليفُ الهِدَايَةِ، والمانعُ مِنَ الغوايْةِ، والَّذِي يُشْبِهُ بإزالتِهِ للسَّوَادِ حَالَ انكشَافِ الضَّبَابِ عَنْ ضَوْءِ النَّهَارِ؛ إِنَّ البياضَ الهَادِي لَمْ يَعُدْ لَوْناً مَحْسُوساً؛ إِنَّه لونٌ لَهُ دِلالاتُهُ الرّوحيّةُ المُثْلَى. فَأَمَانيُّ المُتَنَبِّي بِأَنْ يَكُونَ مُخَضَّباً بِالبَيَاضِ فِي عَهْدِ الشَّبَابِ لَا تَتَعَالَقُ

[22]- شرح ديوان المُتَنَبِّي (معجز أحمد)، أبو العلاء المعرّيّ، 27/4.
[23] - المصدر السّابق نفسه، 4/ 32.

بالشَّكْلِ والمَنْظَرِ بِقَدْرِ مَا تَتَعَالَقُ بالرُّوحِ والجَوْهَرِ؛ وَعَلَى هَذَا فالبياضُ لَدَيْهِ هُوَ مِنَ المَعَانِي الرّاقيةِ العَالِيَةِ الَّتِي تنتسبُ إِلَى العَقْلِ والنَّفْسِ والرُّوحِ لَا إِلَى الجَسَدِ العَرَضِ الزَّائِلِ. فَالنَّفْسُ لَا تَشيبُ بِشَيْبِ الجَسَدِ؛ لِأَنَّها هِيَ الأَصْلُ الثَّابِتُ؛ فقوّةُ الجَسَدِ مِنْ قوّةِ الجَوْهَرِ/ الرُّوحِ وَلَيْسَ العَكْس؛ وَهَذِهِ المقولةُ تجعلُ المُتَنَبِّي واحداً مِنَ المُنْتَمِيْنَ إِلَى الفِكْرِ المِثَاليِّ؛ لَا إِلَى دَائِرَةِ الفلسفةِ المَادِّيَّةِ الَّتِي تُقَدِّمُ المَادَّةَ المُقَيَّدَةَ عَلَى العَقْلِ والرُّوحِ والفِكْرَةِ، فَثَمَّةَ أَشْيَاءُ كثيرةٌ لَا تَجِدُ مُبَرِّرَاتِهَا المَنْطِقِيَّةَ إِلَّا فِي عَالَمِ الغَيْبِ؛ فَرُوحُ المُتَنَبِّي/ نَفْسُهُ –عَلَى سَبيلِ المِثَالِ– تَبْقَى فتيّةً وَقَوِيَّةً عَلَى الرَّغْمِ مِنَ التَّقَدُّمِ الجَسَدِيِّ فِي السِّنِّ، وَعَلَى الرَّغْمِ مِنَ الشَّيْبِ وَالوَهَنِ. وَهَذَا يقودُنا إِلَى مَا يَأتِي:

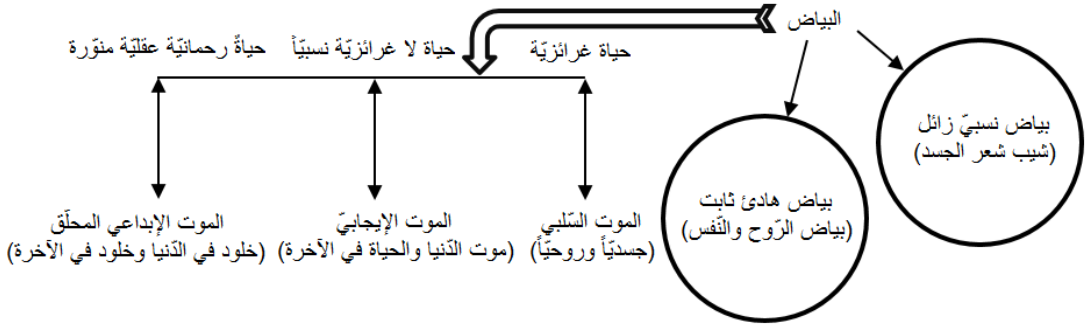

فالمُتَنَبِّي الشَّاعِرُ أبيضُ اللَّوْنِ، لَا لِأَنَّ بَشَرَتَهُ بَيْضَاءُ فربَّمَا كَانَ أَسْمَرَ دَاكِناً؛ بَلْ لأَنَّهُ بَيَاضٌ مُنْفَتِحٌ عَلَى ديناميّةِ الإبداعِ، والاستشرافِ، والتَّنَبُّؤِ العَقْلِيِّ المُجَاوِزِ؛ إِنَّهُ صفحةٌ بيضاءُ لَمْ يحدَّهَا سَوَادُ الكتابةِ، وَلَوْ حَدَّتِ الكتابةُ الخَطِيَّةُ أَوِ التَّحَقُّقُ الصَّوْتِيُّ مَعانيهِ النَّصِّيَّةَ لَمَاتَ أَبُو الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي وَلَانْدَرَسَتْ مَعَالِمُهُ مِنَ الذَّاكِرَةِ الإنسانيَّةِ، وَلَانْتَفَى أَنْ يَكُونَ مُبْدِعاً.

وَعَلَى هَذَا صارَ الشّاعِرُ، بِبَيَاضِ هُدَاهُ وَعَقْلِهِ وَحِلْمِهِ، كَمَا قَالَ:

وَإِنِّـــي لَـــنَجْمٌ يَهْتَـــدِي صُـــحْبَتِي بِـــهِ إِذَا حَـــالَ مِـــنْ دُوْنِ النُّجُـــوْمِ سَـــحَابُ

والنَّجْمُ هُنَا رُبَّمَا تَقَاطَعَ مَع رُؤًى رُوحِيَّةٍ إسلاميّةٍ تُذَكِّرُ القارئَ بقولَ النَّبِيِّ العَرَبِيِّ الكَرِيْمِ مُحَمَّدٍ ﷺ: "**أَصْحَابِي كَالنُّجُومِ بِأَيِّهِم اقتَدَيْتُم اهتَدَيْتُم**"[24] هَذَا مِنْ نَاحِيَةٍ، وَمِنْ نَاحِيَةٍ

[24]- شرح صحيح مسلم، النَّوَوِيّ (محي الدّين أَبو زكريّا يحيى بن شرم، 631-676هـ)،خَرَّجَ أحاديثه: صلاح عويضة، وراجعه لغويّاً:محمّد شحاته،دار المنار، القاهرة، 1418- 1997م،486/15.

أُخْرَى فَإِنَّ المُتَنَبِّي يُشَبِّهُ ذَاتَهُ بِالنَّجْمِ؛ وَفِي هَذَا تَمَيُّزٌ عَنْ أَصْحَابِهِ؛ فَهُوَ القَائِدُ وَالآخَرُونَ تَابِعُون، وَنُورُ النَّجْمِ فِي هَذَا المقامِ مُشِعٌّ نَافِذٌ، وَهُوَ بذلكَ يختلفُ عَنْ بَقِيَّةِ النُّجُومِ الَّتِي يَحُولُ السَّحَابُ دُوْنَ رُؤْيَتِهَا؛ إِنَّ النَّجْمَ هُنَا مُسْتَقَرُّهُ الفَضَاءُ المُنْتَمِي إِلَى الاسْتِشْرَافِ وَالكَشْفِ وَالرُّؤْيَا، فَنُجُومِيَّةُ المُتَنَبِّي مُتَأَلِّقَةٌ ثابتةٌ؛ لأَنَّهُ يستمدُّها مِنَ نَجْمِ النّورِ الَّذِي ليسَ كمثلِهِ شيءٌ، وَعَلَى هَذَا تكونُ وَقْدَةُ جُذْوَتِهِ دَائِمَةً، ومستمرّةً، وَخَالِدَةً، وَلَعَلَّ مَا ذُكِرَ يشيرُ إِلَى الرُّوحِ المُنَوَّرَةِ الَّتِي مَدَدُهَا يَعودُ إِلَى النَّبِيِّ الكريمِ (مُحَمَّد) الَّذِي يَعُودُ مَدَدُهُ ﷺ إِلَى اللهِ جَلَّ وَعَلَا؛ فَالألوانُ – هُنَا – هِيَ ألوانُ النُّورِ المُضِيئَةُ لَا ألوانُ الظُّلُمَاتِ السَّوْدَاوِيَّةِ المُكَدِّرَةِ.

إِنَّ مَنْ يَقِفْ عِنْدَ القصيدةِ الَّتِي اقْتُطِعَتْ مِنْهَا الأبياتُ السَّابِقَةُ يَجِد مَا يَأْتِي:

1– طغيانُ لغةِ **الأَنَا** الَّتِي تعودُ إِلَى الشّاعرِ/ المُتَنَبِّي قياساً بِلُغَةِ الآخَرِ المَمْدُوحِ/ كافور الإخشيديّ.

2– تَتَكَرَّرُ بَعْضُ مَوَاطِنِ الذَّمِّ بِلُغَةِ المَدْحِ، مِمَّا يَجْعَلُ النَّصَّ الكَافُورِيَّ لَا يخرجُ عَنْ كَوْنِهِ هِجَاءً مُضْمَراً، (انظرْ – عَلَى سبيلِ المِثَالِ – الأبيات:26، 27، 28، 29...إلخ).

وَإِذَا مَا قَرَأْنَا قَوْلَ المُتَنَبِّي مِنَ القَصِيدَةِ المَذكُورَةِ:

أَيَـا أَسَـداً فِـي جِسْـمِهِ رُوْحُ ضَـيْغَمٍ وَكَـمْ أُسُـدٍ أَرْوَاحُهُـنَّ كِـلَابُ[25]

فَإِنَّنا نَرَى لِلوَهْلَةِ الأولَى مَدْحاً، فَكَافُورُ الإخشيديّ أَسَدٌ ضَيْغَمٌ، وَغَيْرُهُ أُسُوْدٌ كلابٌ والضَّيْغَم لُغَةً: هُوَ الأَسَدُ الوَاسِعُ الشِّدْقِ الَّذِي يَعَضُّ عَضّاً شَديداً بِمِلءِ الفَمِ، والَّذِي يكثرُ لُعَابُ فَمِهِ، أَلَيْسَتْ تلكَ الصِّفَات تحملُ تركيزاً عَلَى سلبيّةِ كافورٍ الطَّمَّاعِ اللّئيمِ المُخْلِفِ بِالوَعْدِ فِي مقابلِ الأُسُوْدِ الَّتِي أرواحُهُنَّ أَرْوَاحُ كِلَابٍ؟! أَلَا يمكنُ أَنْ يكونَ المُتَنَبِّي قَدِ استَلَّ مِنَ الأُسْدِ الكِلَابِ سِمَاتِ الوَفَاءِ، واللِّينِ، والمَحَبَّةِ، والصُّحْبَةِ، والدِّفَاعِ عَنِ الصّديقِ، والأُلْفَةِ، وَنُبْلِ الموقفِ...إلخ، بَدَلاً مِنَ السِّمَاتِ السّلبيّةِ الَّتِي تُوَلِّدُهَا القراءةُ السّطحيّةُ الأفقيّةُ، وَلاسِيَّمَا أَنَّ البيتَ الثّامنَ وَالعِشرين المُتَعَالِقَ بالبيتِ السَّابقِ فِيهِ تَعْرِيضٌ بـ (كافور

[25]- شرح ديوان المُتَنَبّي، (معجز أحمد)، 154/4.

الإخشيديّ) الَّذِي طَالَ عِتَابُهُ واستبطاؤُهُ فِيمَا كَانَ يَعِدُ الشَّاعِرَ (المُتَنَبِّي) بِهِ مِنَ الوِلَايَةِ؟ يَقُولُ المُتَنَبِّي:

لَنَــا عِنْــدَ هَــذَا الــدَّهْرِ حَــقٌّ يَلُطُّــهُ وَقَــدْ قَــلَّ إِعْتَــابٌ وَطَــالَ عِتَــابُ[26]

وفِي نِهَايَةِ هذهِ الوقفةِ التّحليليّةِ الموجزةِ نَجِدُ أَنَّ لونيّ البَيَاض والسّواد، ولونَ إضاءاتِ النّجمِ، مَا هِيَ إلَّا أَلْوَانٌ مُرَمَّزَةٌ شَحَنَتْهَا لَحْظَةُ الخَلْقِ الإبداعيِّ فَجَاءَتْ مَلَامِحُهَا بنتَ الأَنَا الشّاعرةِ، الأَنَا الطَّموحةِ، الأَنَا المحكومةِ بالأملِ، الآنِيَّةِ تَارَةً، وَالجَمِيلَةِ السَّاحِرَةِ المُؤَثِّرَةِ الهَارِبَةِ دَائِماً.

وَعَلَى مَا تَقَدَّمَ فَالبَيَاضُ أخلاقيٌّ عَرَبِيٌّ أصيلٌ أَثِيْرٌ وَثَّابٌ حينَ يكونُ لَصيقاً بالمُتَنَبِّي، وَهُوَ – عَلَى الحقيقةِ – نقيضُ ذلكَ حينَ يقترنُ بكافور الإخشيديّ سَوَاءٌ أكانَ النَّصُّ نَصَّ مَدْحٍ أَمْ نَصَّ ذَمٍّ.

وَفِي القَصَائِدِ المِصْرِيَّاتِ (الكَافُورِيَّات) نجدُ اقترانَ السَّوَادِ السَّلبيِّ –عَلَى نَحْوٍ عَامٍّ– بِدَوَالِّ العُبودِيَّةِ، والظَّلَامِ...إلخ. يَقُولُ المُتَنَبِّي مِنْ نَصٍّ آخرَ:

مِــنْ أَيَّــةِ الطُّــرْقِ يَــأْتِي نَحْــوَكَ الكَــرَمُ أَيْــنَ المَحَــاجِمُ يَــا كَــافُورُ وَالجَلَــمُ؟
سَــادَاتُ كُــلِّ أُنَــاسٍ مِــنْ نُفُوسِــهِمُ وَسَــادَةُ المُســلِمِيْنَ الأَعْبُــدُ القَــزَمُ
أَغَايْــةُ الــدِّيْنِ أَنْ تُحْفُــوا شَــوَارِبَكُمْ يَا أُمَّــةً ضَـحِكَتْ مِـنْ جَهْلِهَـا الأُمَـمُ؟![27]

إنَّ المُتَنَبِّي يصفُ عصرَ كافور الإخشيديّ؛ فهُوَ عَصْرٌ لَمْ يحكمِ العربُ أَوِ النّاسُ فِيهِ أنفسَهُمْ بِأَنْفُسِهِمْ، إِنَّهُ عَصْرُ الأَعْبُدِ (جمع يَحْملُ دِلالاتِ العُبُودِيَّةِ والسَّوَادِ...)، وَلكِنَّهُم العَبيدُ السُّودُ اللِّئَامُ الرَّديئونَ؛ لأَنَّهُمْ عبيدُ العَبِيدِ... وَلَمْ يكونُوا عبيداً خُلَّصاً للهِ وَحْدَهُ؛ إِذْ لَوْ كانُوا كذلكَ لانقلبَ سوادُهُمُ الخَارِجِيُّ/ سَوَادُ البَشَرَةِ إِلَى بياضٍ خُلُقِيٍّ إِيْجابيٍّ رَفِيعٍ. وَقَدْ حَمَّلَ المُتَنَبِّي اللَّونَ /الأسودَ/ العبدَ السَّلبِيَّ دِلالاتٍ سيسيولوجيّةً (اجتماعيّة) تُذَكِّرُنَا بالتَّكْفِيريّينَ اليومَ ؛ بِشُذَّاذِ الآفاقِ الَّذِين لَمْ يأخذُوا مِنَ الدِّيْنِ إلّا المَظْهَرَ الخَارِجِيَّ السَّطحيَّ كَحَفِّ الشَّوَارِبِ، وَتَقْصِيرِ العَبَاءَةِ...إلخ، فَتَحَجَّرَ فِكْرُهُم وَمَاتَتْ إنسانيّتُهُمْ، وَعَمَّ جَهْلُهُم

[26]- المصدر السّابق نفسه، 155/4.
[27]- شرح ديوان أبي الطّيّب المُتَنَبِّي (معجز أحمد)، أبو العلاء المعرّيّ ، 159/4، 161.

وانقيادُهُمْ لِسَيِّدِهِم المَعْبُودِ لَدَيْهِمْ، فَصَارُوا دُمًى صَامِتَةً مَيِّتَةً عَلَى المُسْتَوَى الفِكْرِيِّ، وَلَكنَّهَا مُجْرِمَةٌ مُؤذِيَةٌ عَلَى المُسْتَوَى الاجتماعيِّ الإنسانيِّ.

وتقترنُ العروبةُ والإسلامُ بِالبَيَاضِ دَائِماً عِنْدَ المُتَنَبِّي، بينَمَا يَظَلُّ لَوْنُ السَّوَادِ لَصِيقاً بِكَافُور العَبْدِ عَلَى المُسْتَوَى العَمِيقِ لِلنَّصِّ، وَيَظْهَرُ ذلكَ جَلِيّاً فِي قَوْلِ الشَّاعِرِ:

لَا تَشْـــتَرِ العَبْـــدَ إلاّ وَالعَصَـــا مَعَـــهُ ... إنَّ العَبِيْـــــدَ لَأَنْجَـــــاسٌ مَنَاكِيْـــــدُ

مَـــا كُنْـــتُ أَحْسَـــبُنِي أحْيَـــا إِلَـــى زَمَـــنٍ ... يُسِـــيءُ بِـــيْ فِيْـــهِ كَلْـــبٌ وَهْـــوَ مَحْمُـــودُ

وَلَا تَوَهَّمْـــتُ أَنَّ النَّـــاسَ قَـــدْ فُقِـــدُوا ... وَأَنَّ مِثْـــلَ أَبِـــي البَيْضَـــاءِ مَوْجُـــودُ

وَأَنَّ ذَا الأَسْـــوَدَ المَثْقُـــوْبَ مِشْـــفَرُهُ ... تُطِيْعُـــهُ ذِي الْعَضَـــارِيْطِ الرَّعَادِيْـــدُ

مَـــنْ عَلَّـــمَ الأَسْـــوَدَ المَخْصِـــيَّ مَكْرُمَـــةً ... أَقَوْمُـــهُ البِـــيْضُ أَمْ آبَـــاؤُهُ الصِّـــيْدُ؟![28]

فالعبدُ (كافور الإخشيديّ) = (الكَلْبُ السّلبيّ حقيقةً والمحمودُ لَدَى النّاسِ فِي زمنِ حُكْمِهِ) = (أبو البيضاءِ) = (الأَسْوَد المَثْقُوب مِشْفَرُهُ) = (الأَسْوَدُ المَخْصِيّ). وَفِي هذهِ المعادلةِ تشبيهٌ لكافور بالكلبِ المذمومِ لَدَى المُتَنَبِّي المَحْمُودِ لَدَى عَامَّةِ النَّاسِ فِي عَصْرِ حُكْمِ كافور الإخشيديّ، فالكلبُ الموسومُ – وَإِنْ حَمَدَهُ النَّاسُ– هُوَ فِي الحقيقةِ ،وِفَاقاً لرؤيةِ المُتَنَبِّي، كَمَا وصَّفَهُ الجَاحِظُ حَيْثُ قَالَ: "الكَلْبُ لَيْسَ لَهُ خَطَرٌ ثمينٌ وَلَا قَدْرٌ فِي الصَّدْرِ جَلِيْلٌ"[29]؛ إِنَّ الكلبَ سَلْبِيُّ الدِّلَالَةِ فِي الأبياتِ السَّابقةِ، وَهَذَا يَنْجَرُّ إِلَى المُشَبَّهِ (كافور) فيزيدهُ سَوَاداً مَعْنَوِيّاً عَلَى سَوَادِهِ الظَّاهِرِ، ويبلغُ التّهكّمُ ذروتَهُ حينَ يُلَقَّبُ كافور بِضِدِّهِ؛ أَيْ **بأبي البَيْضَاء**، فَالبَيَاضُ مَجَازِيٌّ هُنَا؛ لأَنَّه سَوَادٌ عَلَى الحَقِيقَةِ، كَمَا يُقَالُ للمريضِ (سَلِيمٌ)، وَلِلأَعْمَى (بَصِيرٌ). وَرُبَّمَا كانتْ انزياحاتُ لَوْنَيِّ السَّوَادِ وَالبَيَاضِ تِبْعاً لِتَنَازُعَاتِ الحَرَكَةِ الَّتِي تَمَثَّلَتْ فِي الصِّرَاعِ الحَادِّ بَيْنَ الدِّلالاتِ الاجتماعيَّةِ المعجميَّةِ الصَّامِتَةِ المَفْرُوضَةِ بِحُكْمِ قوانينِ القُوَّةِ وَالسِّيَاسَةِ الدّكتاتوريّةِ مِنْ جِهَةٍ، والدِّلالاتِ النّفسيّةِ الجُوَّانِيَّةِ الأَصْلِيَّةِ لَدَى الشَّاعِرِ المُتَنَبِّي الَّذِي مَا انفكَّ أَمَلُهُ المُجَنِّحُ وهُوَ عَلَى صهْوَةِ الطُّمُوحِ

[28]- المصدر السّابق نفسه ، 4/173-175.

[29]- الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحرِ الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السّلام محمّد هارون، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط3، 1388هـ-1969م، 1/217.

بِالمَجْدِ يَرَى الأشياءَ عَلَى حَالِهَا؛ أَيْ كَمَا هِيَ، لَمْ تُفَارِقْ مقامَهَا، وَإِنْ جَلْبَبَهَا الزَّمَنُ بِمَا هُوَ خِلَافُ ذلكَ، مِنْ جِهَةٍ ثانيةٍ.

ولا تبتعدُ حركيّةُ الألوانِ الأُخْرَى عن السَّمْتِ النَّصِّيِّ الشَّاعِرِيِّ؛ إِذْ يَتَحَرَّكُ اللَّوْنُ خَارِجَ المألوفِ بوَسَاطةِ تفاعلاتِهِ السّياقيَّةِ، وَ"الدَّالُّ– فِي هذهِ الحالةِ – يحتملُ أكثرَ مِنْ مَدْلُولٍ عَلَى حِسَابِ الرَّجَحانِ، وَتَثْبتُ دِلالتُهُ عَنْ طَرِيقِ البَحْثِ فِي القرائنِ المَقَالِيَّةِ أَوِ الحَالِيَّةِ"[30]. قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي:

مَـــنِ الجَـــآذِرُ فِـــي زِيِّ الأعَارِيْـــبِ حُمْـــرُ الحُلَـــى وَالمَطَايْـــا وَالجَلَابِيْـــبِ؟!

إِنْ كُنْـــتَ تَسْـــأَلُ شَـــكّاً فِـــي مَعارِفِهَـــا فَمَـــنْ بَـــلَاكَ بِتَسْـــهِيْدٍ وَتَعْـــذِيْبِ؟![31]

إِنَّ البيتينِ السّابقينِ يشكّلانِ مَطلعَ وَاحِدةٍ مِنَ القَصَائِدِ الكافوريّاتِ المَشْهُوَرَاتِ؛ وَقَدْ جَعَلَ المُتَنَبِّي (الجَآذِر) حَقيقةً، وَكَوْنَهُنَّ أَعَارِيْبَ مَجَازاً وَتَشْبِيهاً، وَهُنَا يَغْدُو التّشبيهُ مَعْكُوساً عَلَى المُسْتَوَى التَّشْكِيْلِيِّ الفَنِّيِّ، وُهُنَّ؛ أَيْ الجَآذِرُ (أولادُ البَقَرَةِ الوَحْشِيَّةِ) فِي زِيِّ الأَعَارِيبِ، وُهُنَّ حُمْرُ الحُلَى، والمَطَايْا، والجَلَابيبِ؛ فَحُمْرُ الحُلَى مُرَكَّبٌ إضافِيٌّ ينمُّ عَلَى دِلالاتِ اللَّوْنِ الأَحْمَرِ المُشِعِّ الَّذِي يَسْتَحْضِرُ الذَّهَبَ أَوِ اليَاقُوتَ أَوْ كِلَيْهِمَا، وَحُمْرُ المطايْا؛ أَيْ أَنَّ إبلهنَّ كَرِيْمَةٌ، وَحُمْرُ الجَلَابِيبِ عَلَى لُبْسِ المُعَصْفَرَاتِ وَثِيَابِ المُلُوكِ.

فَهَذِهِ الجَآذِرُ/ النِّسَاءُ المَحْبُوبَاتُ، وَرُبَّمَا كَانَ الخِطَابُ إِلَى حَبِيبَةٍ بِعَيْنِهَا، وَقَدْ تَكُونُ هَذِهِ الحَبِيبَةُ جُؤْذُراً مُتَخَيَّلاً تَلَوَّنَتْ كُلُّ حيثيّاتِهِ بِحَرَكَةِ رُوحِ المُتَنَبِّي/ الشَّاعِرِ، فَجَاءَتِ الجَآذِرُ عَلَى هَيْئَةِ الأَعَارِيْبِ، والأَعَارِيْبُ جَمْعُ الأَعْرَابِ، والأَعْرَابُ جَمْعُ أَعْرَابِيٍّ، فَالنِّسَاءُ/ المَحْبُوبَاتُ هُنَّ أَعْرَابِيَّاتٌ؛ أَيْ يَنْتَمِيْنَ إِلَى البَدَاوَةِ. وَتَدُلُّ مُتَابَعَةُ مَشْهَدِيَّاتِ القَصِيدَةِ فِي أَبْيَاتِهَا المُتَعَاقِبَةِ عَلَى أَنَّ استخدامَ المُتَنَبِّي لِدَالِّ (الأَعَارِيب) كَانَ مَرْكَزِيّاً وَمِحْوَرِيّاً عَلَى امْتِدَادِ النَّصِّ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَكَانَ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى ذَا دِلَالَةٍ إِيْجَابِيَّةٍ مُفَارِقَةٍ لِبَعْضِ مَا عَلَقَ فِي الذَّاكِرَةِ الاجتِمَاعِيَّةِ مِنْ تَوَجُّهٍ دِلَالِيٍّ سَلْبِيٍّ لِهَذِهِ الكَلِمَةِ[32].

---

[30]- نظريّة النّصّ مِنْ بنيةِ المعنى إِلَى سيميائيّةِ الدّالِّ، حسين الخمريّ، الدّار العربيّة للعلوم ناشرون، بيروت، ط1، ص163.

[31]- شرح ديوان المُتَنَبِّي (معجز أحمد)، أبو العلاء المعرّيّ، 41/4.

[32]- جَاءَ فِي القرآنِ الكريمِ قَولُهُ تَعَالَى: (الأَعْرابُ أَشَدُّ كُفْراً وَنِفَاقاً وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنْزَلَ اللهُ عَلَى رَسُولِهِ وَاللهُ عَلِيمٌ حَكِيم) التّوبة: 97. وعَلَى الرغم مِنْ تكرارِ كلمةِ (الأعراب) فِي عَشرَةِ مَواضعَ قرآنيّةٍ، وعَلَى الرّغم مِنْ غَلَبَةِ دلالاتِ السّلبِ اللّصيقةِ بِهَذَا الدّالِّ، فَإِنَّ الثّنائيّةَ الضّديّةَ المستثناةَ، قَدْ ذَكَرَهَا اللهُ سبحانَهُ، وَلَعَلّ المُتَنَبِّي ينسبُ

وَيَجِيءُ استخدامُ دَالِّ الأَعَارِيْبِ بَدَلاً مِنَ الأَعْرَابِ لِيُشِيرَ مِنْ خِلالِ مَادَّتِهِ اللُّغَوِيَّةِ وَإِيْقَاعِهِ الصَّوْتِيِّ (...**فِي زيِّ الأَعَارِيْبِ**) (— × — ∪ — × — ×) إِلَى اسْتِغْرَاقِ المُبْدِعِ/ المُتَنَبِّي/ القَارِئِ الأَوَّلِ، وَكَذَلِكَ بَقِيَّةُ القُرَّاءِ أَوِ المُسْتَمِعِيْنَ التَّالِينَ فِي اسْتِكْنَاهِ المُعْطَى المَضْمُونِيِّ لِدَالِّ الأَعَارِيبِ الَّذِي تَكَرَّرَ ذِكْرُهُ فِي القَصِيْدَةِ بِلَفْظَتَيْنِ: [**الأَعْرَابْ** (فِي البَيْتِ السَّادِسِ)، **وَالبَدَوِيَّاتِ** (فِي البَيْتِ الحَادِي عَشَرَ)]، وَقَدْ أَحَالَتْ تَفَاعُلَاتُ البُنَى السِّيَاقِيَّةِ دِلَالَةَ الأَعْرَابِ صَوْبَ مَعْنًى رَئِيسٍ يُوَجِّهُ سَمْتَ الفَضَاءِ الدِّلَالِيِّ بِاتِّجَاهِ دَائِرَةِ مَعَانِي البَدَاوَةِ، والطَّبِيْعِيَّةِ، والنَّقَاءِ، والصِّدْقِ، وَالصَّفَاءِ، وَالجَمَالِ غَيْرِ المُتَكَلَّفِ أَوِ المُصْطَنَعِ، فِي مُقَابِلِ التَّكَلُّفِ، وَالتَّصَنُّعِ، وَالكَذِبِ، وَالزَّيْفِ، وَالتَّمْوِيْهِ. يَقُوْلُ المُتَنَبِّي مِنَ القَصِيْدَةِ ذَاتِهَا:

مَـا أَوْجُـهُ الحَضَـرِ المُسْتَحسَـنَاتُ بِـهِ ... كَأَوْجُـــهِ البَـــدَوِيَّاتِ الرَّعَابِيْـــبِ
حُسْـنُ الحَضَـارَةِ مَجْلُـوبٌ بِتَطْرِيَـةٍ ... وَفِـي البَـدَاوَةِ حُسْـنٌ غَيْـرُ مَجْلُـوبِ
أَيْـنَ المَعِيْـزُ مِـنَ الآرَامِ نَـاظِرَةً ... وَغَيْـرَ نَـاظِرَةٍ فِـي الحُسْـنِ وَالطِّيْـبِ
أَفْـدِي ظِبَـاءَ فَـلَاةٍ مَـا عَـرَفْنَ بِهَـا ... مَضْـغَ الكَـلَامِ وَلَا صَـبْغَ الحَوَاجِيْـبِ
وَلَا بَـرَزْنَ مِـنَ الحَمَّـامِ مَاثِلَـةً ... أَوْرَاكُهُـنَّ صَـقِيْلَاتِ العَرَاقِيْـبِ
وَمِـنْ هُـوَى كُـلِّ مَـنْ لَيْسَـتْ مُمَوَّهَـةً ... تَرَكْـتُ لَـوْنَ مَشِـيْبِي غَيْـرَ مَخْضُـوبِ
لَيْـتَ الحَـوَادِثَ بَـاعَتْنِي الَّـذِي أَخَـذَتْ ... مِنِّـي بِحِلْمِـي الَّـذِي أَعْطَـتْ وَتَجْرِيبِـي[33]

يَبْدُو أَنَّ الشَّاعِرَ رَغْمَ تَمَازُجِ أَلْوَانِهِ واخْتِلَافِهَا دَاخِلَ بَوْتَقَةِ المَضْمُونِ الَّذِي يَعُجُّ بِصَخَبِ العُرُوبَةِ وَالأَصَالَةِ وَالصَّحْرَاوِيَّةِ وَالنَّقَاءِ وَالطَّبِيْعِيَّةِ الصَّادِقَةِ... فَإِنَّ صَهْرَ الدَّوَالِّ وَتَفَاعُلَاتِهَا النَّصِّيَّةِ السِّيَاقِيَّةِ جَعَلَتِ الأَلْوَانَ مُتَمَايِزَةً ظَاهِرِيّاً/ عَرَضِيّاً، مُتَّفِقَةً مَضْمُوْنِيّاً/ جَوْهَرِيّاً، وَعَلَى هَذَا:

– فـ (الجَآذِرُ حُمُرُ الحُلَى وَالمَطَايَا وَالجَلَابِيْبِ = البَدَوِيَّات الرّعابيب / البَيْضَاوَات المُمْتَلِئَات الجِسْمِ) = (ظِبَاء الفَلَاةِ اللَّائِي لَا يَصْبَغْنَ الحَوَاجِيْبَ بِالسَّوَادِ) = (لَوْن المَشِيْبِ غَيْرِ المَخْضُوْبِ) = (اللَّوْن الطَّبِيعِيّ الأَصْلِيّ الصَّادِق).

الأعاريبَ/ الأعرابَ فِي قصيدتِهِ إِلَى دائرةِ الإِيْجَابِ والصّدقِ الَّتِي جاءتْ بِهَا الآيَة الكريمةُ: "وَمِنَ الأَعْرَابِ مَنْ يومنُ باللهِ واليوم الآخرِ ويتّخذُ مَا يُنْفِقُ قُرُباتٍ عندَ اللهِ وصلواتِ الرّسولِ أَلَا أَنَّهَا قُرْبَةٌ لَهُمْ سَيُدْخِلُهُم اللهُ فِي رَحْمَتِهِ أَنَّ اللهَ غَفُورٌ رَحِيم" التّوبة: 99.

[33]- شرحُ دِيوانِ المُتَنَبِّي (مُعجز أحمد)، أبو العَلَاءِ المَعَرِّيِّ، 4/46- 48.

– **(اللَّونُ الأَحْمَرُ = اللَّوْن الأَبْيَض ≠ اللَّوْن الأَسْوَد) (العُرُوْبَةُ + الصِّدْق + الطَّيِّبْعَة + الأَصَالَة+ البَسَاطَة...إلخ)** .

إِنَّ دَالَّ اللَّوْنِ ذُو مَلَامِحَ شِعْرِيَّةٍ فَنِّيَّةٍ، وَقَدْ اتَّحَدَ فِي مَضْمُونِهِ مَعَ الفِكْرَةِ الرَّئِيسةِ الكُبْرَى الَّتِي تَسْتَبْطِنُ العُرُوبَةَ، وَالأَصَالَةَ، وَالصِّدْقَ وَهَذِهِ مَدْلُولاتٌ نَفْسِيَّةٌ فِي المقامِ الأوّلِ وَلَوْ أَنَّهَا حَمَلَتْ أَبْعَاداً اجتماعيَّةً قَوْمِيَّةً، إِنَّهَا المَعَانِي الَّتِي يُرِيدُ الشَّاعِرُ أَنْ تَتَفَرَّدَ **(أَنَاهُ)** بِهَا كَيْ يَظْهَرَ لَيْسَ نَدّاً لِلمَمْدُوحِ (كافور) عَلَى المُسْتَوَى الظَّاهِرِيِّ فَحَسب، وَإِنَّما لِيُظْهِرَ أَيْضاً فَخْرَهُ وَاعْتِدَادَهُ بِشَخْصِيَّتِهِ، وَمُقَوِّمَاتِهِ النَّبِيلَةِ الَّتِي فُطِرَ عَلَيْهَا، لَقَدْ لُوِّنَتِ الكَلِمَةُ عِنْدَ المُتَنَبِّي بَدْءاً مِنَ البيتِ الأَوَّلِ وَحَتَّى البيتِ التَّاسِعَ عَشرَ بِالأَلْوَانِ الإِيْجَابِيَّةِ؛ إِذْ لَا نَكُونُ مُخطئينَ إِذَا قُلْنَا: إِنَّ اللَّوْنَ الأَحْمَرَ= اللَّوْن الأَبْيَض= اللَّوْن الأَسْوَد= لَوْن الأَعَارِيب= لَوْن البَدَاوَة= لَوْن الصِّدْقِ= لَوْن النُّوْرِ. وَكُلُّ هَذِهِ الألوانِ تشبهُ حَالَةَ تَلَوُّنِ رُوحِ المُتَنَبِّي الشَّاعِرِ فِي أَثْنَاءِ إِنْشَادِهِ لِهَذِهِ القَصِيْدَةِ، وَالتَّلَوُّنُ هُنَا لَا يَعْنِي التَّزْيِيفَ بِقَدْرِ مَا يَعْنِي تَقَمُّصَ الذَّاتِ لِحَرَكَةِ الدَّالِّ وَقِيَادَتَها لِجَوَادِ المُتَخَيَّلِ الشِّعْرِيِّ الصَّادِقِ وُجْدَانِيّاً وَمَوْضُوعِيّاً؛ وَهُنَا تستطيعُ أَنْ تُفَسِّرَ التَّعْرِيْضَ بِكَافُورٍ الَّذِي وَعَدَ الشَّاعِرَ بِتَسْلِيمِهِ وِلَايَةً/ مُقَاطَعَةً، وَلَكِنَّهُ مَاطَلَ وَأَخْلَفَ؛ يَقُولُ أَبُو الطَّيِّبِ:

إِلَــى الَّــذِي تَهَــبُ الــدَّوْلَاتِ رَاحَتُــهُ وَلَا يَمُــنُّ عَلَــى آثَــارِ مَوْهُــوَبِ[34]

وفِي هَذَا البيتِ تَعْرِيْضٌ فِيْهِ تَحْرِيْضٌ لِكَافُور أَنْ يُوَلِّيْهِ وِلَايَةً؛ وَهَذَا مَا لَمْ يَحْصَلْ، وَبَقِيَ حُلماً لَدَى المُتَنَبِّي طَوَالَ حَيَاتِهِ.

إِنَّ جَاذِرَ الشَّاعِرِ المُوْغِلَةَ فِي عُرُوبَتِهَا، وَأَصَالَتِهَا، وَصَحْرَاوِيَّتِهَا وَبَدَاوَتِهَا، وَصِدْقِهَا، مَا هِيَ إِلَّا مَرْمُوْزَاتٌ شَاعِرِيَّةٌ فِي لحظةٍ وجدانيّةٍ مُجَاوِزَةٍ تَمَاهَتْ فِي أثنائِهَا الدَّوَالُّ، ومِنْهُا دَوَالُّ اللَّوْنِ، فَانْزَلَقَتْ مَدْلولاتُهَا تِبْعاً لِسِفْرِ طُمُوحِ المُتَنَبِّي الشِّعْرِيِّ الخَالِدِ الَّذِي لَا تُقَيِّدُهُ صَفَحَاتٌ مَكْتُوبَةٌ وَلَا كَلِمَاتٌ معجميَّةٌ استاتيكيَّةٌ (ثَابِتَةٌ).

قَالَ أَبُو الطَّيِّبِ المُتَنَبِّي:

أَنْــتَ أَعْلَــى مَحِلَّــةً أَنْ تُهَنَّــا بِمَكَــانٍ فِــي الأَرْضِ أَوْ فِــي السَّــمَاءِ
وَلَــكَ النَّــاسُ وَالــبِلَادُ وَمَــا يَسْــ ــرَحُ بَــيْنَ الغَبْــرَاءِ وَالْخَضْــرَاءِ

[34]- شرح ديوان المُتَنَبِّي (معجز أحمد)، أبو العلاء المعريّ، 53/4.

وَبَسَـــاتِيْنُكَ الجِيَـــادُ وَمَـــا تَحْـــ ـــمِلُ مِـــنْ سَـــمْهَرِيَّةٍ سَـــمْرَاءِ[35]

لَقَدِ اسْتَعْمَلَ المُتَنَبِّي الأَلْوَانَ الآتِيَةَ: الأَغْبَر، الأَخْضَر، الأَسْمَر؛ فَالأَرْضُ هِيَ الغَبْرَاءُ، وَالسَّمَاءُ هِيَ الخَضْرَاءُ، وَجَاءَ اللَّوْنُ **(سَمْرَاء)** فِي أَضَامِيْمِ صُوْرَةِ التَّشْبِيْهِ؛ إِذْ بَسَاتِيْنُ كَافُوْرٍ جِيَادٌ فَوْقَهَا رِمَاحٌ سَمْرَاءُ، وَهُنَا حُذِفَتِ الأَدَاةُ، ووجهُ الشّبهِ، فَجَاءَ التّشبيهُ بليغاً؛ وَلكنّهُ حُمِّلَ دِلالاتٍ ارتَقَتْ بِالصّورةِ مِنْ عَالَمِ الحِسِّ وَالمَادَّةِ إِلَى العَالَمِ المَعْنَوِيِّ الرُّوحِيِّ، وَكَأَنَّ أَبَا الطَّيِّبِ أَرَادَ أَنْ يَقُولَ: إِنَّ بَسَاتِينَكَ الجِيَادُ مِنَ الخَيْلِ، وَثِمَارُهَا الرِّمَاحُ، فَكَيْفَ أُهَنِّئُكَ بِالدَّارِ وَالبَساتِيْنِ المَادِّيَّةِ الزَّائِلَةِ؟ فَفِعْلُ الجِيَادِ مِنَ الخَيْلِ المُثْمِرَةِ بِالسَّمْهَرِيَّةِ السَّمْرَاءِ يَذْكُرُهُ الدَّهْرُ؛ لِأَنَّهُ يَكْتَنِزُ بِمَعَانِي الفُرُوسِيَّةِ النَّبِيْلَةِ الَّتِيلا تَغِيْبُ عَنِ الأَحْيَاءِ.

وَالمَدِيْحُ فِي ظَاهِرِهِ حَمَلَ كَثِيراً مِنَ المُبَالَغَةِ الَّتِي قَدْ تُخْفِي وَرَاءَهَا مَقْصدِيَّةً مُمَوّهَةً مُنَاقِضَةً، فالَّذِي مَكَانُهُ لَا فِي الأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ مِنَ المَخْلُوقِيْنَ يَكَادُ أَنْ يَكُونَ عَدَماً، أَوْ يَبْدُو كَأَنَّهُ لَا شيءٌ، وَاللَّاشَيْءُ مَذْمُومٌ؛ إِذْ لَا وُجُودَ لَهُ فِي الحَقِيقَةِ، وَلَا وُجُوْدَ لَهُ فِي الطَّرْحِ المُتَخَيَّلِ المُمْكِنِ الوُجُودِ، وَلَا يُعْقَلُ أَنْ تَصِلَ المُبَالَغَةُ الشِّعْرِيَّةُ إِلَى حَدِّ الكُفْرِ وَعَدِّ المَمْدُوحِ إِلَهً يندُّ عَنِ الجِهَاتِ وَالأَمَاكِنِ، وَلَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ الشَّاعِرُ هُوَ المُتَنَبِّي، وَالمَمْدُوحُ هُوَ كَافُور الإخشيديّ. وَلَا يَخرجُ البيتُ الثَّانِي عَنْ ذلكَ؛ إِذْ إِنَّ مَنْ لَهُ مَا بَيْنَ الغَبْرَاءِ وَالخَضْرَاءِ هُوَ اللهُ وحدهُ؛ وَعَلَى مَا تَقَدَّمَ لَمْ تَعُدِ الدَّوَالُّ النَّصِّيَّةُ بِنْتَ المَرجعيَّةِ المُعْجَمِيَّةِ القَامُوسِيَّةِ، بَلْ صَارَتْ رُمُوزاً مُشِعَّةً حُبْلَى بالدِّلالاتِ، يُرِيدُ أَنْ يَفْجَأَ بِهَا الشَّاعِرُ مَمْدُوحَهُ (كَافُور) بُغْيَةَ الحُصُولِ عَلَى المُؤَمَّلِ؛ وَلِذَلِكَ حَاوَلَ المُتَنَبِّي أَنْ يُجَنِّحَ بِخَيَالِهِ وَبِكَلِمَاتِهِ عَلَى نَحْوٍ حَادٍّ وَمُثِيْرٍ، فَجَاءَتْ رُمُوزُهُ اللُّغَوِيَّةُ صَادِقَةً عَلَى المُسْتَوَى الفَنِّي وَكَاذِبَةً مِنْ حيثُ المَرْجعيَّة الخَارجيَّة المَحْدُودَةُ. وَقَدْ يَكُونُ المُعَادِلُ الوُجْدَانِيُّ بَيْنَ الوَاقِعِ (سُلْطَة كَافُور) وَالطُّمُوحِ المُتَخَيَّلِ (سُلْطَة المُتَنَبِّي عَلَى وِلايَةٍ مَوْعُوْدَةٍ) هُوَ الَّذِي عَدَلَ بِاللُّغَةِ صَوْبَ صُوَرِ المُبَالَغَةِ اللَّامَنْطِقِيَّةِ الَّتِي لَا وُجُودَ لَهَا فِي عَالَمِ الوَاقِعِ الخَارِجِيِّ، بَيْنَمَا تَشعُّ خُصُوبَةً وَثَرَاءً فِي عَالَمِ التَّخَيُّلِ، وَاللَّهْفَةِ، والانْتِظارِ، وَالحُلْمِ، وَالبَدِيْلِ المُؤَمَّلِ. وَإِذَا مَا تَأَمَّلَ المُتَلَقِّي إِيْقَاعَاتِ اللُّغَةِ فِي القَصِيْدَةِ الَّتِي تَنْتَمِي إِلَيْهَا الأَبْيَاتُ السَّابِقَةُ فَلَرُبَّمَا وَجَدَ أَنَّ التَّفْخِيْمَ المُبَالَغَ بِهِ لِشَخْصِيَّةِ المَمْدُوْحِ وَسِمَاتِهَا الخَارِقَةِ هُوَ نَوْعٌ مِنَ الذَّمِّ المُبَطَّنِ؛ لِأَنَّهُ مُقَدِّمَةٌ لِغَايَةٍ نَفْعِيَّةٍ

[35]- المصدر السّابق نفسه، 36/4.

عِنْدَ مُنْشِئِهِ مِنْ نَاحِيَةٍ، وَلِأَنَّ الوَاقِعَ المَوْضُوْعِيَّ يَشِي بِنَقِيْضِ ذَلِكَ مِنْ نَاحِيَةٍ أُخْرَى، وَيَبْدُو أَنَّ القَصِيْدَةَ تَحْتَوِي عَلَى نوًى إِيْمَائِيَّةٍ سَلْبِيَّةٍ مِنْ نَاحِيَةٍ ثَالِثَةٍ؛ مِنْ مِثْلِ قَوْلِ المُتَنَبِّي:

تَفْضَـــحُ الشَّـــمْسَ كُلَّمَـــا ذَرّتِ الشَّمْـــ ـــسُ بِشَـــمْسٍ مُنِيْـــرةٍ سَـــوْدَاءِ[36]

وَيُعِيدُنا المُتَنَبِّي –عَلَى نَحْوٍ غَيْرِ مُبَاشِرٍ– إِلَى ثَقَافَتِهِ الإِسْلَامِيَّةِ الَّتِي تَنْتَمِي إِلَى دائرةٍ مُنْحَازةٍ إِلَى الفُقَرَاءِ الَّذِين قَضوا وَهُمْ يُنَافِحُونَ عَنْ فِكْرَةِ العَدَالَةِ الاجْتِمَاعِيَّةِ وَالاقتِصَادِيَّةِ وَالسِّيَاسِيَّةِ، فَالغَبْرَاءُ وَالخَضْرَاءُ دَالَّانِ يَتَنَاصَّانِ مَع قَوْلِ رَسُولِ اللهِ محمّدٍ ﷺ فِي الصَّحَابِيِّ الجَلِيْلِ أَبِي ذَرٍّ الغفَارِيِّ ﷺ: "مَا أَظَلَّتِ الخَضْرَاءُ وَلَا أَقَلَّتِ الغَبْرَاءُ مِنْ ذِيْ لَهْجَةٍ أَصْدَقَ مِنْ أَبِي ذَرّ"[37]. وَعَلَى هَذَا فالمُتَنَبِّي الشَّاعِرُ صَادِقٌ مِنْ جِهَتِهِ، وَكَافُور (السُّلْطَةُ) لَا يُصَدِّقُهُ وَلَوْ أَنَّهُ شَنَّفَ مَسَامِعَهُ بِأَعْظَمِ الكَلَامِ، كَذَا كَانَ حَالُ الخَلِيْفَةِ الثَّالِثِ عثمان بنِ عَفَّانَ ﷺ فِي أَثْنَاءِ مُنَاسَبَةِ ذِكْرِ الحَدِيثِ السَّابِقِ؛ إِذْ لَمْ يَكُنْ مُصَدِّقاً لِلصَّحَابِيِّ الجَلِيلِ أَبِي ذَرٍّ الغفارِيِّ ﷺ.

إِنَّ مُتَابَعَةَ تَكْرَارَاتِ صُوَرِ التَّشبيهِ الَّتِي تَحْتَوِي أَلْوَاناً أَوَ تتعالقُ فِي امتداداتِها البنائيّةِ النَّصيَّةِ مع دوالِّ الألوانِ، سَوَاءٌ أَكَانَتْ ألواناً أساسيَّةً أَمْ كَانَتْ ثانويّةً، سَوَاءٌ أَكَانَتْ صَافِيَةً أَمْ مُتَمَازِجَةً عَلَى نَحْوٍ جزئِيٍّ، أَمْ مختلطةً عَلَى نَحْوٍ إِشْكَاليٍّ؛ إِنَّ التَّفَاعُلاتِ السِّيَاقِيَّةَ للبُنَى النَّصيَّةِ تشيرُ إِلَى نُقَاطٍ مُهِمَّةٍ تُكَثِّفُ نَتَائِجَ هَذَا البَحْثِ؛ وَهِيَ:

1– انْزَاحَ دَالُّ اللَّوْنِ فِي نسبتِهِ العُظْمَى عَنْ دِلالاتِهِ المعجميَّةِ والعُرْفِيةِ المُقَيّدَةِ، وَقَدْ تَنَوَّعَتْ دَرَجَاتُ انزياحِهِ عَلَى المُسْتَوَى الدِّلَاليِّ، وَلَكِنَّ مُعْظَمَ الانزياحاتِ كَانَتْ فَعَّالَةً، وَخَلَّاقَةً، وَشِعْرِيَّةً (Poetics).

---

[36]- يقول أبو العلاء المعرّيّ فِي أثناء شرحه لهَذَا البيت: "وهَذَا فِي ظاهره مَدْحٌ، وهُوَ مضمر الهجو؛ إِذْ الشّمس لا تكون سوداء"، شرح ديوان المُتَنَبِّي (معجز أحمد)، أبو العلاء المعرّيّ، 38/4. وأرانا نقول فِي هَذَا المقام: ربّما كان المُتَنَبِّي صادقاً عَلَى المُسْتَوَى الفنيّ فِي هذه اللّحظة الإشراقيّة، وصورة الشمس المنيرة السّوداء فيها إبداعٌ ينمّ عَلَى تجديدٍ فِي زمانه، فهذه الصّورة وليدة لحظة الشّعور بالأمل عَلَى المُسْتَوَى التخيّليّ للأداء اللّغويّ المتحقّق، وفِي هذه اللّحظات الأيْجابيّة يغدو كلّ ما فِي الكون حمّالاً للحالة الوجدانيّة الخاصّة، ويبدو أَنَّ الواقع كان سلبيّاً؛ من هنا غدا المديح عَلَى مساحة الكافوريّات منزاحاً إِلَى دائرة الذّمّ، ولا سيّما حينما يقرأ المرء قصائد الهجاء المصريّات (الكافوريّات).

[37]- شرحُ نهجِ البلاغةِ الجَامِعِ لِخُطَبِ وَحِكَمِ ورسائلِ أميرِ المؤمنينَ عليّ بن أبي طالب، ابن أبي الحديد المعتزليّ (عزّ الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائنيّ، ت656هـ)، مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، ط2، 1425هـ، 2004م، 42/3، و377/8.

2- التَصَقَ لَوْنُ السَّوَادِ السَّلبِيّ بِصُورَةِ كَافُور عَلَى نَحْوٍ طَاغٍ، وَقَدِ اقترنَ هَذَا اللّونُ بِأَصْلِ كَافُور الاجتماعيِّ؛ فَهُوَ (عَبْدٌ)، كَمَا حُمِّلَ بِالإِيْحاءاتِ النَّفْسِيَّةِ، والرُّوحِيَّةِ، والفَلْسَفِيَّةِ؛ فانْعَتَقَ مِنْ بُعْدِهِ المَادِّيِّ المَرْجِعِيِّ الخَارِجِيِّ، وَلَئِنِ انزاحَ هَذَا اللّونُ آنِيّاً عَنِ الدّلالاتِ السَّلبِيَّةِ نَحْوَ مَعَانِي البَيَاضِ، فَإِنَّهُ سُرْعَانَ مَا يَعُودُ إِلَى مِحْوَرِهِ الرَّئِيْسِ المُتَعَلِّقِ بِالسِّمَاتِ المَعْنَوِيَّةِ مُعَبِّراً عَنْ دِلَالَاتِ اللُّؤْمِ، وَالكَذِبِ، وَالغَدْرِ، وَالإِخْلَافِ بِالوَعْدِ الَّتِي جَعَلَتْ كَافُورَ الإخشيديّ تمثَالاً يُجَسِّدُ مَخَازِيَ الكَوْنِ.

3- عَلَى الرَّغْمِ مِنِ احتلالِ لَوْنِ السَّوَادِ مَسَاحَةً كُبْرَى مِنْ شِعْرِ الكَافُورِيَّاتِ عِنْدَ المُتَنَبِّي فَإِنَّ الغَلَبَةَ كَانَتْ لِلَّوْنِ الأَبْيَضِ الَّذِي اقتَرَنَ بِدلالاتِ الأَصْل النَّبِيلِ، وَالفُرُوسِيَّةِ، وَالعُرُوْبَةِ، وَالكَرَمِ، وَالصِّدْقِ، وَالطَّبِيْعِيَّةِ، والصَّفَاءِ، وَالطُّهْرِ، وَكَرَمِ المَحْتِدِ/ الأَصْلِ...إلخ، وَقَدْ جَذَبَ هَذَا اللَّوْنُ إِلَى دَائِرَتِهِ كُلَّ الأَلْوَانِ المُنوِّرَةِ نَصِيّاً مِنْ مِثْلِ: الأَحْمَر، الأَصْفَر، الفِضِّيّ/ الشَّمْس/ الفضَّة، لَوْن النُّجُومِ، لَوْن القَمَرِ...إلخ. كَمَا ضَمَّ إليهِ دِلالاتِ اللَّوْنِ الأَسْمَرِ؛ الَّذِي تُشْتَمُّ مِنْهُ رائحةُ العُرُوبَةِ وَقَدْ جَسَّدَتْهَا حَرَكَةُ الرِّمَاحِ دَاخِلَ النِّتَاجِ الشِّعْرِيِّ فِي تَفَاعُلَاتِهَا السِّيَاقِيَّةِ المُنْفَتِحَةِ عَلَى الإِيْحَاءِ الثَّرِيِّ.

4- قَلَّمَا تَكَرَّرَ لَوْنٌ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَنْضَوِيَ دَاخِلَ دَائِرَةِ صُوَرِ المُشَابَهَةِ، وَلَا سِيَّمَا صُوَرُ التَّشْبِيْهِ، أَوْ أَنْ يَتَعَالَقَ مَعَ الدَّوَالِّ الَّتِي بُنِيَتْ عَلَى المُشَابَهَةِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ جَاءَ دَالُّ اللَّوْنِ – وِفَاقاً لِنِتَاجَاتِ التَّحْلِيْلِ النَّصِّيِّ – ذَا سِيْمِيَاءَ خَاصَّةٍ لَهَا بَصْمَةُ المُتَنَبِّي الشِّعْرِيَّةُ؛ إِنْ عَلَى مُسْتَوَى طَرِيقةِ العَرْضِ اللّغويِّ (الأُسْلُوبُ التَّعْبِيْرِيُّ)، أَوْ عَلَى مُسْتَوَى المَضْمُوْنِ النَّصِّيِّ النَّضَّاحِ بِوَثْبَةِ الأَمَلِ الَّذِي سَيَظَلُّ مُشْرَئِبّاً مَا دَامَ هُنَاكَ شَاعِرٌ اسمُهُ المُتَنَبِّي، وَمَا دَامَ هُنَاكَ قَارِئٌ يَتَذَوَّقُ الكَلِمَةَ الشَّاعِرَةَ .

المَصَادِرُ وَالمَرَاجِعُ

القُرْآنُ الكَرِيْمُ:

1) أسرار البلاغة، عبد القاهر الجرجانيّ، تحقيق:هـ .ريتر. وزارة المعارف، استانبول، 1954م، ومكتبة المثنَّى، بغداد، ط2، 1979م.
2) بلاغةُ الصّورةِ فِي شعرِ عبد الوهَّاب البيّاتيّ، دراسة تحليليّة جماليّة، إعداد تيسير جريكوس، إشراف: د.أحمد كمال زكي، رسالة دكتوراه ، القاهرة، جامعة عين شمس، 1996م.
3) جماليّات الشعريّة، د. خليل المُوسَى، اتّحاد الكتَّاب العرب، دمشق (سلسلة دراسات 4)، ط1،2008 م .
4) الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحرٍ الجاحظ، تحقيق وشرح: عبد السّلام محمّد هارون، دار الكتاب العربيّ، بيروت، ط3، 1388هـ-1969م .
5) الخطيئة والتَّكفِير، من البنيويّة إِلَى التّشريحيّة ، عبد الله الغذّامي، دار سعاد الصّباح ، القاهرة، الكويت،ط2، 1412هـ-1991م.
6) شرحُ صحيحِ مسلم، النَّوَوِيّ (محي الدّين أَبو زكريّا يحيى بن شرف، 631-676هـ)،خَرَّجَ أحاديثه: صلاح عويضة، وراجعه لغويّاً:محمّد شحاته، دار المنار، القاهرة، 1418- 1997م .
7) شرحُ نهجِ البلاغةِ الجَامِعِ لِخُطَبِ وَحِكَمِ ورسائلِ أميرِ المؤمنينَ عليّ بن أبي طالب، ابن أبي الحديد المعتزليّ (عزّ الدين أبو حامد عبد الحميد بن هبة الله المدائنيّ، ت656هـ)، مؤسّسة الأعلميّ للمطبوعات، بيروت، ط2، 1425هـ ، 2004م .
8) الصّورة الأدبيّة، فرانسوا مورو، ترجمة د. علي إبراهِيَم، دار الينابيع، دمشق ، 1995م .
9) الصّورةُ بينَ القُدَمَاءِ وَالمُعَاصِرِين ، د. محمد إبراهِيَم عبد العزيز شادي ، مطبعة السّعادة ،الدّوحة، 1411هـ-1991م .

10)الصّورة الشّعرية عند أبي القاسم الشّابيّ، د. مدحت الجيّار، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1995.

11)علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته، د.صلاح فضل، الهِيَئة المصريّة العامّة للكتاب، القاهرة، ط2، 1985م.

12)العمدة، القيرواني(أبو عليّ الحسن ابن رشيق) ، تحقيق: محمّد محي الدّين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط5،1414هـ- 1981م .

13)قَضَايَا النّقدِ الأَدَبِيِّ بينَ القَدْيمِ والحديثِ، د. محمد زكي العشماويّ، دار المعرفة الجامعيّة، الإسكندريّة، 1997م .

14)لسان العرب، ابن منظور(جَمَال الدِّيْن محمَّد بن مَكرم)، دَار صَادر، بيروت، 1955م .

15)المجازُ المرسلُ وعلاقاتُهُ الدِّلاليَّةُ واللُّغَوِيَّةُ – دراسةٌ تحليليّةٌ تطبيقيّةٌ فِي شعر أبي القاسم الشّابّيّ- إعداد إبراهِيَم علي زينو، إشراف: د. طلال علامة، رسالة ماجستير، الجامعة اللّبنانيّة، بيروت، 1997م .

16)مفاهِيَمُ الصّورةِ الشّعريّةِ فِي النّقَدِ العَرَبِيِّ المُعَاصِرِ ، إعداد: لطفِيّة برهم ، إشراف: أ. د . جابر عصفور، رسالة دكتوراه، جامعة القاهرة، 1996م.

17)نَظَرِيَّةُ اللُّغَةِ وَالجَمَالِ فِي النّقَدِ العَرَبِيِّ، د. تامر سلّوم، دار الحوار للنّشر والتّوزيع، اللّاذقيّة، ط1، 1983م .

18)نظريّةُ النَّصِّ مِنْ بنيةِ المَعنَى إِلَى سِيميائيّةِ الدّالِّ، حسين الخمريّ، الدّار العربيّة للعلوم – ناشرون، بيروت، ط1، 1428هـ – 2007م .